أنشودة

شمس

رواية

بشرى محمد أبو شرار

الإهداء

إلى أمــي..

بشرى أبو شرار

مدخل

إضـــــاءات خافته تحيط بالبهو.. ظلال الأشجار لم تكف عن التأرجح ومداعبة نسمات ليلة باردة.. يستلقي، ينشد راحة النفس، يلف ساعديه تحت رأسه.. وعيناه معلقتان عليها.. تدور من حوله تلتقط أشياء وتتمعن في أشياء.. تفتح حقائب وتغلق حقائب.. ابتسامة غلفت وجهه المضيء بنورها.. تقترب منه، تسأله عن حاجيات يهز لها رأسه بإيماءة بسيطة، لم يكن يحب أن يسمع سوى صوتها.. تقفز فجأة على حافة السرير تلكزه في ساقه، تحسبه ذاهبا لإغفاءة، لا تدرى أنه يرصـــد كل حركة تأتي منها.. يرنو لوجهها.. تفتح عينيها.. ترفع حاجبيها، تحاول أن تشاغب معه في حوار بسيط جداً.. تسري في أوصاله براءتها وسحر عفويتها.. يبتسم لها.. يصله بريق عينيها.. تعود تقفز مرة أخرى لزاوية ما في بهو تتحرك فيه بخفة ورشاقة، تسحب أوراقاً.. تحمل قلماً.. تتفكه بمحادثته:

– هل لنا أن ننسى أوراقنا.. وأقلامنا؟!..

لازال مســتلقياً.. لا يود أن يودع تلك الليلة التي كانت معه فيها.. تشــعر بخلجاته العصـــية.. تقترب منه، تجلس على حافة فراشه، تلامس كف يده العريضة.. تمسد عليها بحنو، تصب فيها كل حنانها لا تود أن تبقى في كيانها قطرة واحدة..

تلمس وجهه المســتســلم أمامها.. حاجباه الطفلان الســاكنان لوطء أناملها.. وحافة أنفه الذي يستنشق أنفاسها.. مستسلم لها في لحظات قد تكون الأخيرة.. تسمع وقع الأقدام يتضخم في أذنها.. ونبال نظرات قد تفتك بقلبها.. كيف تضمه.. تلمه..

تطير به بعيداً.. تسلمه تنهيدات قلبها.. يقبض على أناتها بين يديه.. يحتبسها بين ضلوعه.. هل تطير معه إلى هناك في ليلة نســيها القمر.. لِمَ صــحبها في وقت غادرتها أحلامها.. فكان أنيسها في ليلة هي الحلم..

* * * * *

الانشودة الأولى

مقهى في سـيناء نصـل إليه عبر جسـر معلق أخذ انحناءة القمر، يعبرها الفلسـطينيون ليلاً، هدير السـيارة يروي تاريخها؟!.. المحرك يرتوي من قطرات الديزل، يهدر في آذاننا، عربة قديمة تقرر أن تسـير في الدروب، ألا يتوقف أي من أجزائها، تطوي المسافات، تلقي بنا إلى ما بعد سيناء..

* * * * *

حكايات الرجل في تلك السـيارة تشـبه حكايات أمي.. وكيف تحولت حبة البندورة إلى تفاحة تشـفي جارة.. وصـمت ممزوج بالدهشة، من رجل ميت يعود، تفاحة وقشرتها التي سدت ثقب معدته..

في رحلة الصمت الطويلة يخرج من صدرها صوت يسمعونه لأول مرة:

– هي ذاتها حكاية أمي قبل عشرين عاماً، كانت حبة بندورة التي سدت ثقب معدته..

كلماتها علقت دهشـة متأرجحة على ملامحهم، فلوت أعناقهم، يطالعون الرجل الذي فرد سـاعديه الممتلئين على ظهر المقعد الأمامي وبصوت واحد:

– هي من الخيال إذن، قصة قديمة، وتقول إنها من وقت قريب؟!.. ما هذا يا رجل؟!

منهم من أخذه الضـحك والتفكه على ما قال، ومنهم من أخذته الدهشـة والعجب لهذا الرجل الذي عاد يروي حكايات أخرى في آذان حذرة من خيالات وقصص يرويها في ليل سيناء قبل أن يلج فجرها.

* * * * *

بوابة وأقفال موصدة، أوراق معادة.. لو كان يدري كم كان وقع كلماته قاسياً.. لا تحب إعادة الأوراق، ولا النقاط لحظة ارتطامها بالحروف، ولا خطوط النهايات..

يمد يده إليها وقد لصق المظروف مغلقاً إياه:

– قد تنفعك الرسائل المكتوبة منك، أنت في حاجة لأن تعودي إليها..

تذكرت كلماتها بالأمس إليه:

– لا أحب الرجوع لرسائلي..

هو يعيدها، تفكر في كل ما كان منه.. كلماته.. أفكاره..

* * * * *

أم سالم.. تتخدد التجاعيد على صفحة وجهها، طفلة هي في قلبي، تستلقي بجسدها في فراشها، تشخص في فضاء عيني، رفعت راحتها لتلمس قلبي، أسألها:

– هل تذكرينني؟

سـال خيط من الدمع لأسـفل ذقنها المتعظمة، وخيط آخر ينحني لأول شـفتيها الذابلتين، وشـوشـتها.. بأني أذكرها.. تمتمت ترتشف دمعاتها، قطرات من رحيق زهراتها البعيدة..

تغيب الكلمات تتوارى، تدفن في مكامن الضلوع..

تعود صورة الوطن..

أم سـالم طفلة صـغيرة مسـتلقية أمامي، من تلك الأنامل التي جفت على صـدرها كانت تقلب في القدور، نشـم رائحة ما تصنع، نعدو نحوها، تلمنا ونأكل معاً.. ترش اللوز والزبيب على فطائر نحبها..

تعود صورة الوطن..

* * * * *

كريمة تعرف والعربة تسير بهن في شوارع غزة أنها تشتهي أكلة كنافة عربية- وهي التي لم تشته طعاماً- تشتاق لمذاقها كلما تذكرتها:

- سنتوقف أمام دكان الحلواني..

لم تمانع، ولم تخجل هذه المرة، وتعلن صراحة لأختها:

- كيف عرفت أنني أشتهيها؟!

ابتسامة الزهو تفترش محيا الصغيرة بأنها عرفت ما تحبه أختها..

العربة تلف شوارع غزة وكأنها تقول:

- الشوارع تشتهي وداعك..

أزقة وساحات.. كلمات مكتوبة على الحوائط.. صور لشـهداء.. بندقية على خطوط سوداء تتداخل مع خطوط حمراء.. خضراء..

يطويها وطن على صفحات جريدة، ترفع الملعقة تلقم كنافة غزاوية، وما هي إلا لحظة حتى غام وجهها، تنفجر دمعات الفراق، تتساقط ملوحتها في طبق الكنافة الغزاوية.. يستقر الملح في فمها، تلوكه بكاء..

* * * * *

اسـتراحت أمها قبالتها على مقعد خشـبي، تدقق في ملامحها المتعبة، نظراتها المثقلة، لا تعرف كيف تقترب منها، تسألها ابنتها:

- أمي.. أراك غير مقبلة على الحياة، وبهجتك غائبة..

همست شاردة:

- هل تدلينني كيف أقبل عليها؟

اتكأت الصبية على ظهر مقعدها، تشد جسدها للوراء، تمد ساقيها، تحركهما بحركات لا مبالية، تتغلب على ألم يتسرب لنفسها من حال أمها:

- بعض من المساحيق، طلاء الأظافر، وخصل بيضاء تعيدين تلوينها، لم لا؟

ألجمها الصمت لما سمعته، تستجمع أفكارها لتحكي لها ما قد تفهمه:

- بنيتي لو تفهمين.. متعبة أنا..

- لماذا؟

- الحياة تتسرب من داخلي.. أحياناً أعيش موتاً..

زاغت عينا الصبية في عيني أمها، لم تستطع الفكاك، تيقنت من حال صبيتها، تجاهد لابتسامة تزيح بعضاً من ظلال الحكاية:

- أعدك أن أستجمع قوتي.. دعيني أعيش حالتي..

* * * * *

وأنت يا صاحبي كيف تتسرب الحياة منك؟.. وتتوقف كل الموجودات من حولك عن صراع الحب، والحقد، الشفقة، الأنانية، التضحية؟ كيف تنسحب دون إرادتك إلى كون آخر؟ قد يكون أثيراً لنا ونعود إلى ما بنيناه هناك.. وقد لا نعود..

كيف تتسرب الحياة من خلجات روحك؟

من بوابات الفقد لا ترى ولا تسمع، من يعرفك وأنت الوحيد؟!

تعرفهم ولا يعرفونك.. تراهم ولا يرونك.. تخبو خلاياك، تظل جذوة رمادك خامدة.. كما أصير أنا..

بالأمس غافلني العدم للحظة، بعدت عن الأرض وعيناى مفتوحتان عليها، أرى كل الأشياء وقد ابتعدت وأنا القريبة أراها، الرؤيا مغبشة، تتسربل في هدوء من عيني، راحة يد صغيرتي تناشدني في لوعة الأسى أن أعود.. السكينة تسكنني، هدوء يهدهد روحي، سكون من يأخذه اليقين لرحيل قريب..

* * * * *

زنبقتي الوحيدة تذرف من دمع الندى، تقاوم فقداً أبدياً يسطو على كيانها، لم يسقط اسمه من قاموس ذاكرتي البعيدة.. لم يسقط (رفعت) العائد من الغياب الطويل..

من قلب الصغيرة ينفلت الخوف لظلال الحكاية.. أين كان؟!

معتقل في سجون بعيدة، شمس من حفظت قسمات وجه عائد، كان يراهم هناك وقد غارت ملامحهم في جلد وجهه..

شمس ترقب داره، متى سيخرج؟ وكيف تقتنصه بنظراتها وتحفظ ما تبقى من وجه عائد..

على الطريق الترابي يمضي وحيداً منكس الرأس، يجر هزيمته وكل الانكسارات من بعده، صائم في صمته، جائع الروح يهيم بها، يلاحقه السؤال ويغرب عنه الجواب، ظل المحير الطريد، يهجر داره وشارع فلسطين الطويل..

عاد بزنبقة وحيدة من أرض بعيدة.. زنبقة تزهر من دمعات الندى، تتنشقها، تتفتح أوراقها، تضمها على حفاف المغيب..

تعيش الجفاف فيرويها الندى، في عتمة الليل تغرق من دمع الأرض، هما روح واحدة، هو غادر جسـده منذ وقت بعيد، وظلت هي روحاً وجسداً..

لا تجزعي يا زنبقتي الوحيدة على جسد ملقى في البرية ليس منه ولم يكن له.

* * * * *

الأنشودة الثانية

قال لها:

- محطتي الوحيدة والأخيرة أنت.

كيف يرضع الفتيل من روح القنديل.. يتوهج ولا يحترق..

ونار قلبه هدأت جذوتها حين اشتم رائحتها من كف أمها.. قطار يمضي إلى الشمس..

نار قلبه.. وثورته.. يشتاق ليغفو..

نار قلبها.. تشتاق.. من أين لها الغفوة؟!..

- أنت يا كل نساء الأرض.. فيك رأيتهن.. أنت يا من تنتظرين!..

تسكنها عين البركان.. بركان يستنيم للزمان في رقاده.. يجوب الأعماق، يبحث عن ممر آمن، يبث فيه ناره.. اشتعاله.. احتراقه في أتون واحد..

محطتي الأخيرة أنت.. والطريق إلى شمس أعبر إليها من كل المحطات لأصل..

- مثلك أنا أبحث عن فصولي، ألملم بقاياها من الطرقات، قد تعيدك شمس كائن جغرافي، ترسمك على الورق.. حروفاً وسطوراً.. فراغات.. مساحات ممتلئة.. مشعة..

* * * * *

كيف يحس وجعها؟!.. وهي لا تلقي إليه إلا بالضحكات، تنتقي له أرق النبرات، لصوت يتقافز على عود شرقي، ريشة يتناوب بها العازف على أوتاره.. تتفنن في ارتداء ثوب البهجة.. من رنة صوتها كيف يعرفها؟!.. وهي المتقنة لأدوارها.. صوتها الراقص على الأوتار يصرخ في أذنه وجعاً، مفاتيحها غارقة في قاع بحر يعشقة.. مفاتيحها أضحت معه.. وهي الباحثة عنها.. كتلة متفحمة لأعواد هشة تثير الضحك حتى البكاء..

تراقب بقع ضوئية قد تدلها على مفاتيح قلبتها رمال الشواطئ إلى عمق سحيق..

وما بين ابتسام وعبوس يسكن الحلم في برزخ الفرحة والألم.. يزهر والحياة جفاف..

يزهر.. فدفاتري سهول وجداول وصحارى.. البوح روح الحقيقة.. وقطار يصفر للريح يعلن عن محطته الأخيرة.. وشمس تقتفي آثار القطارات.. متى تأتيها؟!.. ومتى ترحل عنها؟!.. ولم يعل صوتها على ضجيج الأصوات ليصل إلى قلبه.. جفاف.. تيبس حلق.. ولهاث..

* * * * *

الأنشودة الثالثة

تنتظر هاتفها في حجرتها المطلة على زرقة البحر، تطاردها أمواجه..

وحكايات تتناثر على حفاف صدفات تتهيأ لتطويها.. تستقر في قاعه.. نام صوتها على أحبال حنجرتها.. تود لو يصحو من نومته.. ولحظة يحدثها على خط هوائي.. تتململ في مقعدها.. تعدل جلستها.. تقلب صفحات أمامها.. تسدل أهدابها.. تلتقط دمعة.. تسقط في حلقها.. تذوق ملوحتها.. وصوتها لازال في سباته.. وصوته الراحل عنها، تسأل:

- هل لي أن أحدث أحداً.. وأسمع صوتي يتردد من حولي؟

طوت أجندتها، خوت ذاكرتها، لا أحد، إلا هو البعيد هناك.. مضى وذاب حبل الهواء وراءه.. إلا ذاكرة تتألق في روحها.. يزداد وهجها.. دون الاحتراق وكلماته لها:

- توهجي يا شمس ولكن حاذري الاحتراق.

* * * * *

البحر يسكنه.. عاشق له.. والجبل صخوره في قلبها تتفتت كل يوم.. طريقها جبلي.. طريقه سهل وبحر وسوافي رمال..

من سطح دارها ترنو إلى الغرب يطالعها يم أزرق.. تدور لتلتفت جهة الشرق، تخايلها قمم جبلية.. ما بين شرق وغرب تسكن هي.. وهو هناك يبحث عن صدفة قد يكون التقاها.. لمها.. ضمها في صمت.. على سر حكايته معها.

* * * * *

يصحو صوتها من سباته.. تسمعه على حبل هواء تقطعت عليه أنفاسها.. تناديه باسمه.. هل يسمعها؟ تسأله حاله.. يعاند على صخور الكلمات.

الوقت زاحف نحوها.. صوته لازال معلقاً على حبل هواء.

- تركتني.. وحزن قلبي.

- لماذا يا شمس؟

- كنت معي في صبحي ومسائي.. رحلت عني إلى هناك..

- الغريب يعود إلى أرضه يا شمس.

- متى تأتي؟

- بعدت المسافات، وطويت أوراق سفري القريب.

– وأنت؟

– أنا قادمة، كنت أخاف أن أطأ الوطن وأنت بعيدٌ عني، حسبت أن اللقاء قريب هنا.. فكانت مساحات الوطن أشد اتساعاً.. تنتظر العائدين.

أعود وأجلس على حقائبي أمام حاجز زجاجي، أنتظر من يدق على جواز سفري ختم الدخول.. تقذفني حافلة إلى هناك.. أحتضن الشمس.. الهواء.. الأرض تلم كياني المنثور من بقاع الدنيا، أعود إلى شهب سطعت.. ترقب الأرض.. لمكان آمن لسقوطها.. أسقط هناك..

– أفتقدتك كثيراً.

– ....

قفل الخط، وعادت إلى نفسها تسأل:

– كيف خانتني إرادتي.. كان صوتي يملؤه الضعف والاحتياج إليه..

* * * * *

الأنشودة الرابعة

– مشتاقة أنا..

– مشتاق أنا.. احك لي..

– حكايتي هي أنت.. أنت بخير؟

هنا لملمت أشلائي من بقاع الدنيا، أحتسي حكايتك معي من فنجان قهوتي في الصباح..

– متى ستأتين؟

– ....

– فلتحزمي حقائبك يا شمس، لا وقت لدينا..

– ....

– سـآخذك معي إلى كل الأماكن، وأطيرك كما تطير الفراشـات، وتعودين لتحطي على غصـن الليلك لأراك أمامي..

– ....

– أنت متعبة يا شمس.

أعادت كلمته إليه:

– متعبة!.. أنا.. كيف عرفت؟!

– من حروف نقشتيها على ورق كنعان القديمة.. عودي يا شمس..

لهفته أذابت حبل الهواء المعلق.. انكسر صوتها خوفاً من ضياعه منها، هاتفته باكية:

– وحين أعود هل يغادرني التعب؟

أراد أن يجذبها إليه بكل حبال الهواء الممتدة:

– قلت لك سأطيرك إلى كل الأماكن.

حكت له بصوت الوجع الذي يعرفه:

– لا أريد التحليق.. تعبت من الإقلاع والهبوط، أريد أن أركن إلى محطة أخيرة.. هل أجد حضن أمي؟ هل يعود حنانها إلى بعد أن غادرني؟ قل لي.. لماذا حمل صـوتها الرجاء بأن أعيد عليها أشـعاري، زجلاً غادر ذاكرتي؟ رجاؤها قطع حبل الهواء في صـدري، بكيت ملء قلبي، لو كنت أعرف أنها سـتسـألني أشـعاري القديمة لما ضيعتها، لم ألقيتها بين الدروب، لتزهر زهرات ليلكية، يقطفها الغريب حين يمر بها..

شمس تعود إليها كتلة قرمزية تتسطح آخر حدود اليم في كنعان القديمة..

من أعاد إليَّ أمي؟

أمها وخال على خدها، وشمس وخال على صدرها.. نسيته هاجعاً تحت ثيابها، لم تعد تذكر آخر مرة نظرته، واليوم هل تعود تتحسس خالها الذي اقتسمته مع أمها، وهي التي جربت أن تجتثه من سطح خدها بمشرط جراح.. لتعود دونه سعيدة.. ليلتها غافلها ونبت مرة أخرى من لحمها.. من دمها.. ليظل يذكرها بشمس هناك..
قفل خط الهاتف.. تخلقت دمعة أزاحتها، لتبقى كلمته لها:
- مشتاق أنا..

* * * * *

الأنشودة الخامسة

- وحيد أنت؟

- وحيد أنا.. قهوتي وأوراقي..

فاضت من روحها تنهيدة، تود الاقتراب من عالمه هناك.. تؤنسه.. يؤنسها.. تشاكسه.. تحسه.. وهي الأقرب إليه، تعود تسأله:

- وحيد أنت؟

- وحيد أنا يا شمس، آخذك أمامي، أشكلك كما يراك قلبي، طفلة أضم شعرها بشعرات بيضاء، وأفرد جدائلها، أطلقها للريح، وامرأة بهية يغار الفجر منها حين يغسلها الندى..

كلماته تضمها.. تعود معه صبية.. وامرأة يعتصر الألم فؤادها، تسأله عساه يدلها:

- أخاف إن عدت لا يطاوعني قلبي على الرجوع والبعد مرة أخرى..

- هنا ستعيدين نفسك من جديد، حينها سأشد على يدك وأعود بك إلى هناك.. غداً يا شمس ستنشر قصصك من هنا إلى هناك.. كتبت اسمك (العائدة قريباً)..

احترقت أنفاسها على تنهيدة، بثته هواء صدرها، همست إليه:

- ليتني العائدة قريباً.. كنت حلمي في ليلي الطويل.. سأكتبه.

- لا تتعجلي الكتابة.

- فلتأخذ قصاصات أوراقي.. تتبعني حين أجنح للجنون، وحين أمتطي متون العقل وأحط في محطاتي..

- أراك يا شـــمس تقتربين.. وبيدي ثوبك الأبيض موشـــى بالحلم الذي كتبته معك.. أســـلمتك حروف كلماتي فكانت هي كلماتك.. رسمت خطوتك بجواري، وطرت بك إليها..

طاوعتها ضحكة مسافرة إليه.. قالت:

- وأفتح عيني على فنجان قهوة أمي..

سكتت كلماتها.. وخجل حال بينها وبين كلمات تودها.. فنجان قهوته تحمله إليَّ، أشتم فيه أنفاسك الساكنة في قاعه.. ولحظة هل تأتي إليها من هناك؟

* * * * *

الأنشودة السادسة

فُرش توسدتها أجسادهما.. أراحا ظهريهما إلى الجدار الأسمنتي، فردت ساقيها وأراحت ساعديها على طول جسدها الملقى أمامها، تتأمل جنبات المكان.. أرض أسمنتية.. أصص من التنك نبتت فيها زهرات ريحان ونعنع بري.. الصمت ثالثهما، ومن الضجيج والحركة ترتاح أنفاسهما.. الجدار حال ما بين طول الرحلة ومشوارهما.. فُرش طرية مكسوة بورود عباد الشمس التي لحقتها حمرة قرمزية تفيض من عينها.. تحادثها الصبية.. تبتسم لها.. تقتفي آثار حكاياتها.. يقترب الصبي منه.. يطلب ثقباً في طائرة ورقية، يستعدل جلسته.. يرحل بنظره إلى مراعي الطفولة.. ينتهي، يناوله، يقبله بفيض ابتسامة.. يعود للجدار.. يفتش عن راحتها المستلقية على جسدها، يقبض عليها، تستسلم له، يشدها نحوه، يفيض فيها كل جوانحه، يتلامس كتفاهما، يشتاقان، يعبان هواءً بحرياً، يفصله عنهما أزقة المخيم.. كفها لازالت في محراب البوح.. لتنجلي الحقيقة.. الوقت عسير، ينهضهما، يغمرها خجل يفوق إرادتها المطواعة له.. يئز الباب في يده.. أنين الفراق، يطالعها الزقاق.. العيون ترنو إليهما، الأقدام تقف ترقب خطاهما.. يسألها الرجل.. تقف، تستعلم حكايته:

- هل لي بكتاب منك؟

خلت كفها من رحيق الكلمات.. وحولها المخيم الذي يحكي معها منذ عهد قديم حكاية الرجل والصبية..

* * * * *

الأنشودة السابعة

لم تذكرني بالوقت؟.. وهو المداهم للحظاتنا.. هل تعلم أنني تعذبت به قبل أن تحكي لي عنه.. أخاف من عقارب ســاعة بعيدة أن تتوقف عن دورانها فأســقط على زمانها الذي كان.. الوقت الزاحف نحوي، يؤرقني، يسحبني للوجع.. إمرأة من شوق، تقسم أنك تراها، إمرأة صوتها بلون الليلك، وطعمه رائحة ياسمين، أمواج تهدر، تندفع بكل قوتها تعبر الصخر، تتخلل مساماته، تنحسر بالحنين عنه.. كلماتك أنستني عقارب الساعة البعيدة.. نسيت دورانها، وثقل ساعاتها ولحظاتها، لم تستعجل الوقت؟!.. وأنا التي لم أخشه يوماً إلا حين التقيت، ولحظة تقبض على عقاربها توقف دورانها هي تلك اللحظة التي تقول "عبثية" يوم احترق جسد أخي هناك.. كانت لحظة عبثية، وارتطام الموج بالصخر، والوقت الذي تخشاه.. وهو القادم إلينا، لم تذكرني، أنت من أنســاني زمان هنا وزمان هناك.. نســكب من أرواحنا مداداً على ورق يقف في وجه الزمن الزاحف من ورائنا.. إمرأة ما بعد الفصول، ورجل هو كل الفصول.

البرد يسكنني وهاتف يفيض اشتعاله على جلدي، الجماد في يدي يحس كلماتك، أسألك أن لا أعتاد صوتك كل ليلة.. تسألني هل تغادر وتعود في ليالٍ قادمة؟.. استحلفك بأن تبقى معي، والهاتف يتوهج لصوت عائد من هناك، وحيد قلبي، وحيد صوتي، هل سمعت أصواتاً ينقلها الفضاء وحيدة؟.. يسقط ندى الصباح من دمعها، وكيف يلتقي صوتك بي فيلم الندى، ليزهر على ربيع صوتي..

حين يذوب حبل الهواء وتفنى الكلمات من ورائه، تغادرني مكامن الحروف.. يتوقف زمني عند حبل هواء ذاب في فضاء الأرض، وعودة التقاطه مرة أخرى.

أســحب أوراقي لأكتب إليك، أبحث عن نظارتي قبل أن أخط حرفاً.. ما بالي أســتعين بكل الموجودات لتؤازر كلماتي قبل أن يوهنها الحنين؟.. وقبل أن يداهمها الوقت الذي تستعجله.. قالت صديقتي:

– نعيشها لنكتبها، فلتكتبي كلماته إليك يا شمس.. وإلا سيحزن قلبي.

هل تستعجل الوقت صديقتي؟.. تريد أن نكتب ونكتب، ننثر ما تبقى من على أزماننا..

سألتني:

– انني لن أعرف النوم تلك الليلة؟

بل سأنام ملء جفوني، سعادة تغمرني وستحملني لقلب النوم.

وتعرفني أكثر من نفسي، في فراشي أستند على ساعدي، وثقل رأسي على راحتي، ويمناي تكتب، والثالثة صباحاً، ونوم لم ينقر زجاج نافذتي، كأني لم أفض إليك بكل ما يشغلني عليك، دوماً أسألك:

– ماذا ستفعل حين يغلق الخط؟ أحاول أن أمسك بآخر حبل هواء يصلني منك وجداً وألماً وحنيناً..

* * * * *

الأنشودة الثامنة

هل تعلن شمس عن موعد رحيلها؟.. هل تدق قدماها على عتبات مودعة؟.. هل تتقاذفها نوبات الشهيق والزفير ونذير الانفجار؟..

تتلهف على المغيب.. تلف على خيوطها كل الأزمنة المتسربلة، المغادرة.

الصمت يحتضن حضورهما وغيابهما، ينطق لهما عن ميقات الرحيل.

- احزم حقائبي؟

يهمس لها:

- لن أدعك تغادرين وتذهبين عني، وأنا الذي لمتني خيوطك القرمزية على حافة المغيب، أودعتني هنا وأنت هناك.. أين أوراقك؟.. وهويتك القابضة عليها، تعبرين الحواجز بها، سأذيب أوراقها وألغي تواريخها، وأضيع منها ختم الخروج، كيف ترحل شمس؟!..

يجثم الصمت، تنكسر أضواء أعمدة النور على زجاج افترشه الغبش، يمضي بها إلى ربوة السودانية، إلى رمال حفظت أقدامها، السكون شجي يوجع روحيهما، تنبسط الأرض لهما، شردت عيناهما إلى سماء الأرض، ليل حزيران وغيوم تزاحمت، تبعثرت، تنزاح عن نجمة تتلألأ في عينيها، تشير له:

- نجمة تلاحقنا، والنوة قادمة، رياح الغرب تدفعها نحونا..

سكنتها برودة، أوقفتها عن الكلام، رفع ساعده يلفها، يضمها إلى صدره، إلى دقات قلبه، لهاث أنفاسه، أوقد في أوصالها شرارة دفء تفيض بالحنين، تمتم يسمعها كلماته:

- القمر هلال يلاحق نجمة، تقصر المسافة، هل تسكن النجمة حضن القمر؟..

حبت نحوه بكلمات هاجعة تحاكيه:

- وتضئ عتمته.. يكتمل بدراً..

- يكتمل بدراً يا شمس..

* * * * *

الأنشودة التاسعة

سألته:

– ما سر مدينتنا؟

– كما ترينها أمامك.

– تهرب المسافات منا ، تتسرب ذاكرة المكان، أبراج تزاحم فضاء مدينتنا، نوافذها متلاصقة، فتحاتها ضيقة، من يسكنها؟.. قد أراهم ولا أعرفهم.

– ....

تشير له على بيت مقيم على ناصية الطريق:

– قديم أعرفه ويعرفني من ذاكرتي البعيدة.

تلف ساعتها تدقق فيها، الوقت يقترب لأحزم حقائبي.

رفع رأسه إليها، أبحر في عينيها، تسعفه حروف كلمات لا يودها معه في تلك اللحظة المقهورة:

– ترحلين!!..

يضم قبضة يده إلى صدره:

– سأقطع كل حبال الهواء، وأدق هذا (المسخوط) أحطمه في يدي.

يشد قبضته على هاتفه النقال ويلقي به على النضد، استلقت كلماته المذبوحة على روحها المعذبة، تحاملت وهي تراه طفلاً يذرف الدمع، تمد يدها إليه تهدهده، تعاتب طفولته:

– أنت!.. تحطم وتدمر كل ما يصلني بك؟!..

وكيف يكبر الطفل ويصير رجلاً؟!.. وأنى له أن يعود.

– نعم أنا.. حين ترحلين في صمت، دون الكلام..

* * * * *

الأنشودة العاشرة

علية يا دمعة الأمس والغد.. كيف رأيت عصفورين يتقافزان على غصن أذابت الأشواق أشواكه.. وأرق يأخذهما هرباً من غيمة قد تحجب ضوء الشمس عنهما.. سألتك:

– رأيت ما رأيت اليوم أم في الأمس؟..

كان الأمس لها وله، يحملها غصن زيتونة، يرنو إلى الجنوب حيرة.. ترنو إلى الشمال رجاء مذبوحاً.. ما بين شرق وغرب، هي وهو وحكاية الطيور والوجع، حصان تركته وحيداً، جفت مياه مراعيه، وغابت عنه أعواد الدريس، رف له قلبها، لو تقترب منه، تمسد براحتها على رقبته، وتسدل عينيه الحزينتين على حكايتها وحكايته، تمسح بخدها وجهه، تودعه الحياة دون غيمة قد تحجب ضوء الشمس..

يا من تختزن الدمع في بحرى عينيها، هل تمضي عنه؟.. كيف لها أن تمضي على جفاف تيبست له أوصالها؟ حمل زيتوناً تخونه أغصانه، سنة وسنة، يوم ضمها ومضى بها يتلمسان الفروع وأحمالها، يتحسسان حبات الزيتون، مرسومة ملامحهما على القطوف، يخاف الوصول إلى قلب الشجرة، قد تبوح بسره إليها، الأرض تناديها، شهقت، تراجعت أمام فروعها الممتدة، تنحني للأرض، تغور بها، تتجذر في أعماقها، رهبة الحضور في بطن الزيتونة، لفحهما السكون، يقاوم ليسكنها معه فسحة من وقت على انتظار من زمن بعيد، من عمر زيتونة عنيدة..

– اجلسي..

خافت أن تلقي بثقلها على فرع انحنى للأرض وانغرس فيها، خفقات قلبه تسمعها، تقبض على أنفاسه، تسقط نظرتها على ساق الشجرة، يصلها صوتها، تناديها، تعالي إليَّ، فلي من الحكايات حكاية، تجلس بجواره، شاردة منه إليها.. كعصفورة صفراء وعصفور أزرق، كانا على سهوم.. تدور بعينيها، الحصير وراءها، ظلت حبيسة أمنيتها، لو تفترشه وتطلق لجسدها العنان، تريحه وتجوس براحتيها في تراب الأرض، تفركه بين أناملها، تتحد بطينه، ثم تعقد راحتيها تحت رأسها وسادة، تعانق الفروع والوريقات وأحمال الزيتون، تحبسها تنهيدة في صدرها، لا تطلقها للريح ويسافر بها بعيداً..

الشرق أمامها وحصان لم يقف على قوائمه، يتمرغ على تراب الأرض وطينها، تحت ظل زيتونة، لم يعد الحصان وحيداً.. وشمس هل تتكلس على حبات الزيتون، وتنغرس في أرض رواها بدمه..

كيف نامت شمس في ليلة بعيدة وحيدة؟.. كيف غلف الدمع وجهها بطبقة شمعية رقيقة، ظنت أنها تحولت إلى مخلوق سيجوب الفضاء أودعته الأرض سرها، فرحت في أحلامها، تحسست وجهها المتشمع على الدمع، تفيق من غفوتها، يسقط القناع، تغرقها ملوحة، تحزن، وتعرف أنها منذ تلك الليلة هي بعيدة وحيدة.. وزيتونة هناك من عمر الزمان أضحت حزينة..

وتعرف كيف قادها الطريق معه إلى بوابة موصدة، حاول انتزاع أقفالها، استدار نحوها على عجل يمضي بها بين الفتحات وأشواك الأسلاك، يمر بها إلى زيتونة قديمة تقيهما برد الصيف، وكيف ليده أن تمتد وتقطف عيداناً برية حملت زهرات بنفسجية على أوراق رمادية تحمل أشواكاً حريرية؟! تتفتح الزهرات لها، تقبل نظرتها مع طلة الصبح، وتذكر أرض الزيتون وكيف يخرج الليلك من الحزن إلى النشوة لحضورهما.. ومن يعرف كيف تبكي الروح.. وكيف ذبلت زهور البنفسج؟ وانحنت من ثقل حزنها على عيدانها..؟

كم تشبهها زهور البنفسج، وعصفورة وعصفور كانا وجهاً لوجه يشخصان للأرض بعد أن هشم الارتطام حلمهما..

* * * * *

الأنشودة الحادية عشرة

– **دخان** لفافتي التي أشعلها حريق، حريق قلبي أيتها الساكنة بجواري، ألا ترين ساعات الرحيل تدور على ساعدك؟.. فلتمري بيدك لتمسحي دمعات تغسل كفك، أشتعل يا شمس من بقايا بقاياك.. هل اقتربت مسافاتي إليك حين التقينا؟..

– ومتى كانت بعيدة؟!..

في ليلة اســـتدار القمر لها، زحف إليها يشـــق العتمة، يعلو عن الجدار، يثقب نوره كيان الأرض، باحثاً عن الشـمس، يقطع طريق صــلاح الدين، دون الحواجز يصــل إلى رفح.. صــحراء ســيناء.. قمر لم تغره الحدود البعيدة..

* * * * *

الليلة تركن على أحد المقاعد الخشبية.. تتنفس الدوالي.. تتنفسها ورقات البرتقال.. تتدلى الأحمال خضراء.. تتفتح عن براعمها.. تنتظر شـــمس اليوم والغد.. لتكبر وتتلون بخيوطها.. وماء يســـتقر بها.. ينتظر حلاوة الخريف وعصــف رياح الشـتاء.. الليلة تركن شـمس إلى أحد المقاعد، تحتضـن بعينيها كل ما يقابلها، ترتفع بنظرها على ســيقان شــبت وعلت لتتدلى أحمالها.. يتســحب النور إلى عينيها، ترتعش نظرتها، والنور القادم إليها، قمر عائد من رحلة طويلة، تتعلق على استدارته، يكتمل أمامها، تذهب إليه، تعانقه، يحملها ويمضي..

* * * * *

الأنشودة الثانية عشرة

فجأة انسحبت أضواء الشاشة الصغيرة، تاركة مساحتها للعتمة، يسقط جهاز التحكم من يدها على حافة الأريكة، يعلو الهمس على الصمت:

– هل تسمعين؟ أنصتي..

ساد سكون..

– إنها (الزنانة).

وجلت نظرتها، تعيد حواسها من جديد، تحاول إدراك الحالة التي أمامها، طنين بعيد، ما إن يقترب حتى يعود يجوب فضاء المدينة، تسأل مصحوبة بحالة الدهشة:

– وما هذه (الزنانة)؟!

يقفز إلى أذنها صوت الصبي، يحمل همة الحياة، يزيح عنه غطاءه، فنومه دائر هناك في فضاء الزنانة.. يلاحقها.. يرصدها.. يسند رأسه على ظهر سريره، تلمع عيناه على أطراف ضوء خافت، وكأن ما يسمعه مصاحبه في حلمه الصغير، ولازال منامه هناك، وكلمات دائرة في رأس الصغير يحكيها كالعارف بكل شيء، يطلق تنهيدته ويلف ساعديه أمام صدره قائلاً:

– هي تصورنا الآن، وتطير دون طيار، ترسم خرائط مدينتنا.

يعلو صوت الزنانة عائداً، يغلف صوت الصبي، ينصب في أذنها، يكبر تصوراتها من حكاية الصغير وكيف تدور، تبتعد لتأتي مرة أخرى، وهل يصل إدراكها إلى ما يتصوره الصبي في فراشه، ومنامه المحلق حولها لم يأت بعد.. هل يتصورها طبقاً طائراً كالذي يطيرونه في ألعابهم؟.. أم أن الحكاية تشابكت خيوطها؟!

من فتحة شباكها أطلت تنظر الليل في فضاء مدينتها، رنين الهاتف يمتزج بصوت الزنانة، يذوب صوتهما في دورانها، تعرف محدثها، وشوشة الأصوات على أحبال الهواء تثور، فالمروحية قادمة من جهة الشمال، تسأله:

– هل تسمع ما أسمع؟

يسألها:

– هل تسمعين ما أسمع؟

كلاهما نطق بصوت واحد:

– المروحية تقترب.

يصلها صوته مشوشاً، أحبال الهواء تتقطع وتعود تلم أطرافها بعناد وإصرار أشد، ليصل ما تبقى من صوته وصوتها.

– الضربة ستكون قوية وقريبة.

على أحبال الهواء تجدل ضفيرة الزنانة والأباتشي، وعين الصبي وأنفاس تقطعت على مدارات الأرض، ارتطام، انفجار، أشلاء تناثرت، زجاج تهشم يحمل صورهم التي كانت من الحكاية ولم يتبق إلا حفرة عميقة يسكن فيها رمادهم.. وخيوط مظلة واحدة ضمت ليل مدينة كانت لهما هناك.

* * * * *

الأنشودة الثالثة عشرة

مستلقية على سرير حديدي، تيبس فراشه، تناثرت دوائر صدئة ضيقة على جنباته، تسألها عن نومها المبكر:

– ....

لم ترد، ساد صمت محير، أخذت طرفاً من سرير مقابل، ترقبها بعينيها القلقتين، أشاحت بوجهها متمتمة:

– لك أن تفتحي داراً لرعاية الأطفال، هذا ما يناسبك.

أدركت قصدها، أحفاد، وصبية أصدقاء، يلتفون حول الشمس، همست شاردة من وراء شباك حجرتها، لتعود نظرتها ترتد على مساحة حجرة ضاقت عليها.

– سأرحل قريباً، ولا أعلم متى تكون العودة، سيذكرونني يوماً صورة قد تكون بعيدة.

– ....

يسود صمت ثقيل، تتحامل، تنهض قائلة:

– حان موعد نومي.

تمضي إلى حجرتها.. تجر زماناً قديماً على بلاط الدار، وتعرف أن الصبية تنتظرها، تقاسمها الفراش كل ليلة، ترفع عن وجهها خصلات من شعرها وتلفها حول أذنها وهي في حضن النوم، تمرر راحتها على أعلى كتفها إلى أن تقبض على كفها الصغير تودع فيه حنانها، تنتظرها مستلقية، تسمع تنهيدة الحبور لوصولها بعد انتظار، دارت تفتح الحقائب وتغلقها، ترفع أشياء ها لتأخذ مكانها استعداداً للرحيل، والصغيرة ساكنة، هادئة في سلام روحها، توقفت عن تحركاتها القلقة، تلتقط أنفاسها المتقطعة على جوانب حقائبها، تحدثها في هدوء يضج بالبكاء:

– اقترب موعد رحيلي.

لم تنطق الصغيرة، غام وجهها، وتوارى السلام عن قسماته، تفرك قدميها الصغيرين، تضغط على أصابعها، مضجعة على ألم فراقها، تستجمع كلمات طفلة قد تصل إليها:

– لماذا ترحلين؟!

– لأني يجب أن أغادر، ولابد منه يوم الفراق..

ألقت بجسدها على فراش الصغيرة، تضمها تقبلها، تزيح خصلة وراء أذنها، تتجلى لها قسمات وجه يعذبه الرجاء لاستبقائها.. تسمعها من روحها كلمات:

– حبيبتي.. ما أروعك يا عبير الأرض.

* * * * *

الأنشودة الرابعة عشرة

غُم القمر في تلك الليلة، هارباً عن فضـاء دارها، من رنوها إليه في ليال باحت له بالشـوق والحنين، يذكرها بما قد تنساه، وتذكره بأيام لم تبرح نوره الذي كان، والليلة لم تبق إلا حسرة الرحيل، دارت من حول دارها تترقب قدومه، فكيف لقمر ألا يودعها؟!.. وهي المقتلعة على استدارته، تمضي الغيمات عنه، لا يلتفت نحوها، ولا تغريه مساراتها، يلاحق الجالسة على بساط الأرض، أينما تكون يظهر لها، من ليل مدينتها النائمة، درجات أربع اعتادت لقاءه عليها، تضم ساقيها، تلف ساعديها عليهما، تلاحقه بعينيها، تدور دوراته، لم تؤمن يوماً بأنه عتمة، وأحجاره متناثرة من بقايا أخاديد، يسترق ضوءه من خيوط الشمس، بل هو النور، وموعدها الذي لا يغيب، تناجيه روحاً تقابلها، لملمت ورقات مبللة بحبات الندى، رسمت مع القمر لحظات رحيلها..

تمضي العربة، الشبابيك مشرعة على بحر غزة، بشواطئه الساكنة، صدره خيوط من الفضة، تلثم الثرى، مدت يدها تقبض على الهواء، قد يحمل موجاته إليها، لتستلقي على كف يدها، أجهشت، تناثرت حبات دمعها على عتمة الفراق، لم يلحظ السائق قلباً أدماه الحريق، يتحدث عن طريق "أبو هولي" كيف الوصول إليه ليأخذ رأس الدور، تتسرب موجات البحر من عينيها، وحديثه إليها.. هو بحرنا.. لنا.. وهي الماضية عنه، ومن رآها تمضي في دروب حديقتها، تلمس بجلد يدها ما عشقته فيها من سنين، عرفت كيف ينخر السوس سيقان الدوالي، كيف يموت المكان برحيل أصحابه، وجدتها يوم ركنت على كتف الباب تودع آخر قطاف العنب، تقضم حبة واحدة وتمضي، فالرحلة باتت قصيرة، شمس تتحسس المطارح بكف يدها، بنور عينيها، تبكي، تنوح، تصاحب الأنين، بساط جدتها من غزل يدها قطعت أجزاءه، ألقى منه في بيت الخزين، وقطعة أمام فرن الطين، وأخرى مغبرة متكومة هناك، هل تأخذ ما تبقى من خيوط جدتها؟.. يصرخ داخلها.. لا.. لم يعد ما كان، أشارت للصبية:

– هنا كنت أطير الوقت ويطيرني، في غرفة الخزين تحضرني الخيالات، تأتيني على بساط ألف ليلة وليلة.. ميزان ملقى على بابها، لعب فيه الصغار، على كل كفة كان الميزان مليئاً بالحجارة، يتوازن العالم أمامها بكفتين من الحجارة، قد تلحقنا عدالة السماء، قد تشير إليها أصابع الصغار.

* * * * *

يتسحب النور من عينيها، يغادرها، تريح رأسها على مقعدها، ولحظات عشق حالمة، تلسعها حرائق كلماته، زهور البرتقال وموت الخلية، وملح يحتل مساحات الماء، تسقي الزهور مواتاً، وأسراب النحل تركب متون الريح تبحث عن زهرات برتقال تروى بماء من جداول أنهار حالت المتاريس بينها وبين الوصول..

* * * * *

كل ما كان تجمع في نظرة رشقها بها على المعبر الحدودي، وفي نفس اللحظة طعنته بنظرة لازال نصلها يلهب عين الشمس، ناولته، وناولها، احتدم القتال، حضر التاريخ، وجوه الشهداء مرسومة على حائط مدينتها، تصرعه نظرتها، وهي الواقفة تناوله، فضاء رحلتها من خلفها جدار، أسلاك مكهربة، عدسات تصوير فاغرة فمها تلتهم كل المشاهد، والجالس أمامها من خلفه مساحة ضيقة تحجب ضوء النهار، وهي الواقفة على عنادها، وبقايا إشعاع لازال يسكن خلايا جسدها المتعب، من مركبة حدودية مغلقة، محكمة، لا تستطيع يد طفل أن تمتد ليلوح بها مودعاً، رجال، أطفال، شيوخ، كل يمر، بغرفة مشعة، رجل مضبب من بعد يراقب تحركاتهم، يتابعهم بإشارات يعرفونها أوامر واجبة التنفيذ وإلا.. قد يشير لهم ويعفيهم من المرور فيها، لحظة رآها أعطى الإشارة لآخر بحتمية مرورها، لتأخذ كل طاقات الإشعاع في جسدها، داخلها رسمت لهم أقدام صفراء.. حمراء، وصوت بعربية ركيكة يلقي لها بالأمر:

– ارفعي يديك، دوري وأعيدي حركة الالتفاف.

أزات تتخبط في أذنيها، تأخذها وتلقيها على حوائط معدنية باردة، ترقب النسوة المتشحات بالسواد، يمررن بها، دون غرفة الإشعاع، ولم شمس دونهن يختزن جسدها الواهن كل ما كان، ورجل وعينه الراصدة لها، تبقى شمس، ويسقط هو على حفاف الجدار، من أمامه، من خلفه، بطول الأرض، يسقط على الموانع والسدود، كما نظرته حين طالتها واحتدم القتال، هو تاريخ الحضور من يوم كنعان، لحظة ناوله بطاقة، وهل للحظة أن تختزل كل المعادلات، أكون أو لا أكون، أيها الفلسطيني إلى أين؟.. اقتلاع تباع دون كلمات مهداة على صفحات بيضاء، ووردة جورية حمراء ثبتوها على لافتة هناك خلف الجدار، "حياة جديدة" مرسومة وريقاتها، كتبت عليها كلماتهم، من الجذر "أمن"، وساقها "استقرار"، وأوراقها "رزق"، "ازدهار"، تربية وتعليم". كيف تعيش وردة جورية وحيدة بين حاويات الحصباء والزلط، تقلب حمولتها على الأرض فيثور غبار، تغيب الرؤيا عن أوراق الوردة والجذر والساق، من تحت الجدار يعلو البناء، يعلو الجدار، كل دقيقة تعبر المقطورات، وكل دقيقة تغتال أنفاس من يعبرون على لوحة الزمن الثقيل، على ساعات أزلية قديمة، بعمر الأرض، ساعات حجرية يمرون بحساباتها، مكدودين، مثقلين، يرزحون تحت وطأة الحلم، باستنشاق هواء الشمال والجنوب، يتشبثون به، سيظل دوماً حتى وإن عادوا إلى هناك.

عربات الإسعاف خلف البوابات المكهربة، تحمل أجساد أطفال استسلموا للرحيل، عربات لا تسمع صوت محركاتها، ولا تدور إطاراتها، ساكنة سكون الموت، الموت يرصدنا، عدسات التصوير تلتهم ملامحنا، الإشعاع يسبح في خلايانا، ونظرة تقاتل.. تختزل كل ما كان.

* * * * *

الأنشودة الخامسة عشرة

جلست تنظر اللحظات العبثية، ارتطام الموج بالصخر، وكيف تندفع الموجة بكل قوتها نحو الصخر، وتعود لليم هادئة آمنة، على هذا المشـهد أرخت جسدها على مقعد خشـبي، أسـدلت أهدابها تسـتسـلم لإغفاءة على وشــــيش الموج وارتطامه بالصــــخر، وموعد تنتظره منذ أيام طويلة مرت عليها، تقترب من نهاية اللحظات، وإغفاءة هي طريق ممتد تضمه ذكريات تلمها، تستأنس بها في لحظات الانتظار.. يدق هاتفها، تسمع صوته بعيداً، خفيضاً، موجوعاً، تسأله حاله، يسألها حالها، نهضت من مقعدها تستنشق رحيق كلماته، تلتقط صوته من فضاء الكون الذي يكلل ليلها، ركنت إلى زرع أخضر، تمسد على أوراق لمعت من فيض الحنين.. يسألها، تسأله، تركن إلى لحظات الزمن الماضية عنها كلما اقترب الوقت، ويسكت الكلام وتموت موجات الهواء، يتحول الهاتف إلى جماد يعلن عن موته، كيف تمسك بالثوان، وتتوسل إلى الدقائق وتبكي للساعات أن تقف على حد روحها.. قلبها.. كيانها.. ولا تمضـي عنها وتتركها تتشـظى بألام الوجد والفراق، ويطول الزمن الثقيل عليها، يسـألها.. لك أن تختاري أي يوم أحاكيك؟..

تقف على حيرتها تفزع من الوحدة القادمة إليها، وعالمه يشـرق في قلبها الوحيد دونه.. ولا تجد بداً من أن تختار يوماً يتواعدان عليه.. يذهب بعيداً، وعزف كلمات حزينة تسـافر عنها.. يظل الجماد في راحتها يودع دفأه، لتحل برودة الأيام الثقيلة.. وشــوق يطحن فؤادها وجداً وحنيناً.. كيف يمضــي الوقت بنا؟!.. وكيف نمضــي به؟!.. وزمان يرســم أيامه وســاعاته وتواريخه.. أي زمن هذا الذي نعترف به ونقدس دوراته، ولا يكترث بحضـورنا وغيابنا.. لم يعد أمامها سـوى استحضار كلماته من جديد، وكيف تشاكس معه:

- أعرف متى يحزن قلبك وأنا هنا وأنت هناك.
- حين تكتب عن الشمس، ماذا بعد؟
- سأكتبك أنت.

* * * * *

الأنشودة السادسة عشرة

تبحث عني هنا.. وهناك.. ولا تجدني.. يصـيبك الوجد والوهن ومرارة لن تبارح أنفاسـك.. تأخذها شـهيقاً وزفيراً، تنخس في صدرك اشتياقاً ولوعة.. مسكين أنت.. وقبل أن تكمل جملتها قاطعها بصوت حنون راجف:

– وأنت مسكينة أيضاً.

عطف بها عنادها قائلة:

– غير معتادة أنا.. قسوة تضمني منذ سنوات.

ظل حديثه إليها يدق على وجدانها.. (مسكينة أنت.. مثلي أنا..) دمعت عيناها، فاضتا بالوجع، مذاق الحلوى وقف في حلقها، لا تقدر أن تلوكها وتبتلعها سـكراً، بل غرقت في مرارة روحها، بأنفاس متقطعة همسـت لنفسها.. مسكينة أنا..

* * * * *

الأنشودة السابعة عشرة

أين أنت لترى ما أرى في ليلتي؟ هو البحر وأنت عاشـــقه، بياض أمواجه وتدافعها، طيور بيضـــاء تفرد أجنحتها، تشـــق عتمة الكون، أضـــواء على آخر حدود اليم ترتعش من برد الغربة البعيدة، ونور ملقى تزحف برودة نحوه، يزيحها، يقاوم، يرمي بقايا ضوئه، تقودني عيناي إليه..

أين أنت لترى معي العتمة تقبل هلالاً وتهديه نجمة الليل، لينثر عليها كلمات القصـــيدة، تلمها في محراب نورها، والمسافة وحيدة، كأنها على انتظار لثالث يقودهما، فطنت لنفسي، هل أكون أنا ثالثهما؟.. وهل تقودني العتمة إليك؟!.. وتختزل المســافات البعيدة، لتسـكن قلب القمر.. يكتمل لها.. وأنا وأنت نتســرب في فضـــاء الكون، تأخذنا العتمة وتهدي لنا هدية..

هل ترى ما أرى؟ من آخر حدود اليم أسـراب الأضـواء المرتعشـة تقترب مني حيث أنا.. تحمل إلىَّ لؤلؤات الليل هدية..

* * * * *

الأنشودة الثامنة عشرة

من رأى شـــمس اليوم على مقامات البوح.. مقامات الأفول والحضـــور؟!.. تفترش كلماته تحاذي الوجع فيها.. وكيف قبل كفها معانقاً، تفتح عينيها تجده يحمل ثقل رأسها، والكلمات تتناثر من حولها، تعجب للمكان، تبحث عما ضاع منها، وكيف أتت إلى هنا؟!

هل جاءت محمولة على قرص الشـــمس لشـــروق جديد على كوكب هناك، قد تجد للحكاية بقية، هل أينعت زهراتها وتفتحت، قد تلتقطها يده ويمضـي بها، وهو الذي أطلقها عصـفورة تقتفي أثر الشـمس لتمضـي إليه.. دوماً شـمس على سفر ورحيل، تجفف دمع الفراق، مالها من هذا الكون من شـيء، تنسلخ وتتسحب عن كل الموجودات ولا ترى نفســها إلا معه هناك، وهي البعيدة هنا.. وقهوة فقدت مذاقها، جفت في قاع فناجينها، لم يعد دخان لفافته يتسحب إلى أنفاسها، ولا عادت أعواد ثقابه تنير وجهها بجواره حين يطلق لهبها فيدور يبحث عن عين شـمس، قد يجفف دمعة فراق لم تغادر مقلتيها، منفضـة اللفافات طافحة، وشـمس لم تشـهد احتراقها وتفحمها، كيف يتسرب الموت إليها بطيئاً، ويعرف مثلي كيف تغتال أعواد ثقاب من اشتعال خاطف وتفحم إلى رماد وكيف تقدر هي؟!.. وكيف يقدرون هم على فرك ما تبقى في حضن الاحتراق.. إلى رماد؟.. لترتح عيونهم على مشهد الدمار.. ويعاهدوا أن لا يرحلوا إلا به.

من سمع شمس تسأله عن بحة صوتها، وما جرى لها؟.. خاف أن تدميها إجابة يلقي بها إليها.. أنها لا تملك سـواها.. أنها لم تعد تسـتطيع، وهل تخرج العين من بطن الخد وتذرف نزفاً من سـواد؟!.. عين الشـمس تذرف لؤلؤات هدايا، تفترش صدر البحر، تلقي بزغاريدها لمن يلوحون لها.. وهل لنا أن نعرف من أين تأتي الشمس؟ هو يحملها على حكايات الأسـاطير القديمة.. لتكون شـمس أسـطورة القلب والحياة وشـوق الانتظار.. تحمل جناحين تفردهما في بياض الثلج، وصوتاً يغرد تغريد العصافير دون بحة ولا نزف.. عائدة صوب الشمال لابن الحكاية.. وعذاب يسكن فيها هو سر الحالة..

* * * * *

الأنشودة التاسعة عشرة

مرارة تسكن فنجان قهوته، رائحة روحها حائمة في فنجانه، تزيح مرارة السنين، تعلم كيف يشربها من روحها، وهي كيف لها أن تعرف؟!

كيف يصبح الكبار صغاراً في عالم ليس لنا، وصبية تقدر أن تقرأ على مساحات وجهه وتعرف لحد البكاء.. حاذر الاحتراق فأنت من تشعل قناديل العتمة، فكيف تحترق من لفافات مشتعلة تفركها يدك في منفضة تلم ما تبقى من الحكاية!.. تراها تتنفس الأشواق واللهفة، تعرف أنها تغفو على كلمات تناثرت حول فراشها عساها تنسج من حروفها ووجعها ألمها هي.

تراه هناك بعيداً وحيداً.. دخان لفافاته يشعلها حريق، يود لو يضم الأرض في راحة يده، يعدم المكان والزمان، يولد زمن أبيض، تسكنه إمرأة بيضاء صافية نقية، يراها في حضن القمر، تفرح بضوء يزيح العتمة.

الليلة دخلني الفرح، عبرتني الدهشة، فتحت عيني على آخرها لأفسح طريقاً لانعكاسات تلاحقني، تزقزق لروحي في سكونها، همست بصوت آت من هناك:

– الليلة سأنتقل لشقة جديدة في الطابق العلوي، الليلة سأكون أنا وهو في مكان واحد بعد عذابات الطرقات التي حملتنا وألقت بنا لشقة جديدة..

....

أطلقت تنهيدتها، تنظر ساعة يدها، الوقت يمر، وموعدي معه، نظرت إلى قدميها، رمال الشاطئ عالقة بها، وموجات دوماً تلاحقها، تريدها لتسحبها هناك على صدر اليم، كيف تطاوعها؟!.. بعد أن عبرت كف يدها نسمة دافئة، قبضت عليها فكانت راحته هو.. كيف تطاوعها وتمضي عنه؟!.. يصلها دفء أنفاسه من سكونه، يحكي لها أجمل الكلمات تتدفق إليه بكل حواسها، تحكي له.. يحكي لها:

– يخيل لي، إنك تتحدثين من عالم هناك، وحين ترجعين لن تتذكري كلماتك هذه.

ضحكت ملء رئتيها فرحة تجتاحها:

– بل سأذكرها.

– ....

تخلع عنها ملابسها، تتجه لمغطس الماء، تلمس جلدها ناعماً، تراه لامعاً، مسامات جلدها تتنفس مكاناً جديداً.. تستلقي في فراشها، العتمة نور في عينيها، فردت ذراعيها تستقبل فجراً جديداً، شخصت في فضاء روحها، دموعها تسابق سقوطها، تسأل مكاناً جديداً ووجع يفسح الطريق إليها على كلمات الأمس التي لم تعد تذكرها..

* * * * *

الأنشودة العشرون

تصحو من نومها، لا تعرف من أين أتت، وأين كانت في غيبتها الطويلة؟!

صوت ارتطام سقوطها على الأرض يوجع روحها، استسلمت لوسادتها، أسدلت أهدابها على أنامل انكفأت في بطن راحتها، تبتلعها بقايا من ريش الطيور في وسـادتها، ترهف السـمع لزقزقات مخنوقة حيناً، سـاكنة حيناً، تسمع العدم.. صدرها يعلو ويهبط، تأتيها أنفاسها وتمضي عنها، وفراش لازال يحتويها، تتعرف على أشيائها، حقيبة تلم أوراقها، نصـوص كتبتها، يقبض طرفها مشـبك أسـود، تداعب أوراق فصـولها، ربت على العشـرين والمذياع مازال على شـدوه كما كان قبل أن تمضـي.. آه وآهات.. تطيرها سـتائر على نسـائم ألف ليلة وليلة، ترقب كيف يحمل الهواء سـتائرها، ترتفع.. تسـتقر في علوها ثم تأتيها لتهبط في سـلام وهي العائدة لتوها من هناك، ليس أمامها إلا أن ترقب الحالة لتبدأ تحرك جسـدها، تعتاد نفسـها فيه.. وتمضـي على حجرة أرضـية لعودة أخرى..

* * * * *

الأنشودة الحادية والعشرون

– مشتاق أنا..

عادت تسأله عن حاله، فأعاد إليها كلماته:

– مشتاق أنا..

في سكون مشوش آت من هناك، يعود يلتقط الهواء على مدارج أنفاسه:

– كيف حالك؟

تذبحها تنهيدة تعبر إلى حنجرتها الذابلة..

– كما تسمعني، ماذا تفعل الآن؟

– ثلاث أشياء.. كنت أنا والبحر والحكاية، أنت وأنا..

عادت إلى شـــجونها.. تود لو تســـر إليها بأنها كانت والبحر والحكاية التي ظلت روحاً هائمة في قلب الأمكنة التي كانت معه.. يتعربش صوته على رهافة سماعها له..

– أخذت حماماً.. قد أزيح بعضاً من اغترابي هنا، صنعت قهوتي، وأجلس أمام فنجانين لي ولك أنت.

بدهشة تدمي روحها التي هناك..

– أنا!..

وأسمعك يا شمس.

– والبحر؟..

– البحر ساكن فينا.. أنت وأنا..

– في صوتك ما يصلني بالعذاب.

– وطيرتك عصفوراً يطير إلى الشمس..

– وأنت؟

– أنا.. لا تخافي.. لم أمت بعد.. سأسمع صوتك الأسبوع القادم..

– سأنتظر من تلك اللحظة.

– من الآن؟!..

– من هذه اللحظة سأنتظر.

على حبل الهواء يعيدها مرة أخرى:

– سأعود إليك بالأمل يا شمس.. أليس جميلاً ما أراه هنا منك..

– ما بين لقاء وفراق تسكن فرحة الحلم، تأتيني لتأخذني إليك..

* * * * *

الأنشودة الثانية والعشرون

يأخذك الأخضـر مداداً تكتبه، وأنا في هذه الليلة انسـكب على أوراقي، وطال أناملي، فضـمخها الأخضـر، الليلة يأخذني النوم من يدي، فألونه بالأخضر، هل رأيت عتمة وقد توشحت بالأخضر في ليلة عرس قمرية؟! على ســـاعة الزمن نتواعد، يأخذنا اللهاث إلى محطاتنا، نختار لحظاتنا، جئتني قبل موعدك، جافاني الوقت، نطقت إليك دون الروح، متغربة عن دنياي، إلى عالم أخذتني إليه، هناك بين طبقات الأثير، ســـألت من؟!.. أدقق في ساعة الوقت، وأنت الآتي من ورائه تستحثه من بقية أنفاس تتحين الوصـول إليَّ، عرفتك بعد حين، آلمتني روحي، كيف تغيب عني؟!.. وأنا التي عذبها الانتظار، مذبوحة روحي على دوران ســـاعتي، غروب يغرق شمسي في نهار جديد قد يأتي بك من مدينتي المحاصرة هناك، تقبض ساعتي على الزمان فيطاوعها، عقارب الساعات لا تعرف شيئاً عن ساعتنا التي تأخذنا إلى الغفوة على حبل هواء، يطوينا الأثير، يذهب بنا بعيداً، تعلمني كيف نقبض على جذوة الروح حين تبوح.. وحيدة أنا، ينهشني حزن الفراق، تقترب مني ملامحك فتؤنسني، تبتعد، تغرقني وحشة العالم، ألوذ بكلماتك، الضوء يعبرني، تهدأ روحي، أستعيد عالمي فيك.

بالأمس غافلني النوم، أفقت على صوت ينادي، ملابسي لم أبدلها، حذائي لازال ممسكاً بقدمي، تعجبت ابنتي، سألت:

– كل هذا تنامين؟!.. هل ستمضين الليل إلى غد؟!

كيف والجســد واهن، والروح مغادرة حيث أنت، تقول "ســتأخذني حبيســة الأطر"، معك قد أكون أينما كنت، يتقصف ريشنا وينمو على وجه جلدينا لرحلات جديدة عبر أمواج الأثير، قد تحملك إلى نوات الشتاء الباردة، وقد تأتي والربيع مزهر في قلبك تلقي إلى ببرعمات من هناك.. وردة الشـــوك غافية يأكلها الجفاف، من يدك أخذتها من أرض الزيتون، لم تلق أوراقها، لم يذهب عنها لون البنفسج، أسمعك تنادي:

– تعالي يا شمس، أودعك كل الوردات البنفسجية، تهيأي لطقس الحضور، لتتفتحي مع زهرات البرتقال.

زهراتك الأولى ســتظل يانعة على مكتبي، على ضـــوئه تصـــحو وعلى عتمتي تنام، أنا التي أبحث عن برواز زجاجي يحمل زهورك، لتذكرني بالحكاية.. حكايتي أنا.. أنا التي يدميها الفراق.. وهناك أنت يعذبك الشـــوق.. يعود صوتك يعلو في صدري:

– تعالي يا شــمس.. تعالي واشــتاقي لكل المطارح التي كنا فيها معاً، الوطن ينتظرك بكل شــجونه وأوجاعه، لأجل من بقوا هناك عودي.

انقطع حبل الهواء.. تحضـــر كل الأمكنة، معابر.. حواجز.. رفح.. خان يونس.. دير البلح.. غزة.. تســـتقر بسيارتها أمام باب دارها.. خلف باب وسياج.

* * * * *

الأنشودة الثالثة والعشرون

يا زنبقتي الوحيدة.. هل نظرت حولك وتأملت المكان جيداً بعد شهقة من عطر أنفاسك الطيبة.. ستجدينه لم يغادر يا علية، أقسم لك أنه بجوارك على مكتبه، وأقسم أنه سيأتيني طيفاً مسافراً يخطف طريق مروره من نور العين ووهج القلب.. مسافر هو.. دوماً مسافر.. يحدثني، يقترب ويبتعد، يحزن ويفرح، أسمع ضحكته الساخرة من قانون الحياة، أشاركه فيها، يمضي، أقبض منه على كلمات.. وهو العائد إليك، سيحدثك ويقول لك ما أراد أن يظل هناك لا يخرج من سياج الوطن، سيلقي به إليك أنت يا زنبقتي الوحيدة، وسأعود أنا بنت الحكاية أبحث عن حروف اسمك أنت، وكيف تكتبين كلماته إليّ على شاشة مضيئة، هل رأيته يا علية، نعم هو هناك وسيعود يحمل لك هدية من كلمات..

* * * * *

الأنشودة الرابعة والعشرون

غداً على حبل الهواء ستولد الكلمات من بطن الغيمة، كلمات لم تطلها خطوط الشفق لحظة المغيب، تأتيني بيضاء، فمن يقرأ حروفاً من أثير؟

....

السكون يلمني، أسمع صوتك فيه هامساً، يطغى على كل الموجودات من حولي، هدير السيارات، أصوات المارة، مذياع يمطر أذني بموجات أثيرية، تلفاز لا أرى صوره المتلاحقة، أظل أنا، وأنفاسي، وأنت وكلماتك:

– هل رأيتني يا شمس؟

– ....

– إحك لي عن حالك؟

– حالي كما تعرفينها منذ زمن.

– لازلت تنزفين ألماً، بنبض عروق متعبة، تائهة أنت يا شمس ما بين هنا وهناك.

تصفر موجات الأثير في صدرها، هالة من ضوء تأخذها عن مدار الأرض، تنفد أنفاسها، تغيب، يأخذها الصمت إلى حروف الكلمات، تعود إليه.

– هل تسمعين كلماتي؟

– كيف رأيتني وأنا البعيدة هنا؟

– أنا لا أرى الشمس، بل هي حاضرة في كياني.

تتعثر كلماتي المأخوذة بالدهشة..

– كيف رأيتني في منفاي هنا، ما بين زحام، رنين، فرحة وحزن، فقد وفراق، وأنا المنفية عن كل الصور والمرايا، ومن دمعات غريبة يرتوي بها بحر الملح كل يوم، وأنت ماذا تفعل هناك؟

– أجدف على ضفاف البوح يا شمس، من مياة شطآننا مداد كلماتي، قد أصل بالنهر إليك، باحثاً عنك في كل وجوه النساء، أراهن يختبئن في زواياهن، بانتظار وهج يشع من عينيك، ضوء عبرني، ومنه أكتب كلماتي..

عادت موجات الأثير تعزف مرثيتها الوحيدة، تعلن عن الوقت، وهو الذي يراهن فيه روحه التي هناك.. عادت تردد كلماته إليها:

"السهوم يسكنني، يأخذني إلى ضياع

السهوم يسكنها، يأخذها إلى ضياع.."

* * * * *

الأنشودة الخامسة والعشرون

يفترشان بساط الأرض، يرقبا زحف الأمواج وانحسارها، تنتابها حركات قلقة، يقلب علبة ثقابه في كف يده، تتلاحق أنفاسه لاهثة في قلب كلماته، عيناه ترحلان خلف الأفق، تستجمع قواها أمامه، تهرب منه لصفحة البحر، تستقل مراكبه، تبحر في يمه، يعيدها إليه من حيث بدأت حكايته معها:

– سألت نفسي ما الحالة التي أعيشها معك؟

يحاصرها بنظرة قلقة، يعاود مرة أخرى:

– ألم تسألي نفسك سؤالي هذا؟

ترد هامسة، تخاطب روحها:

– سألت..

وعلبة الثقاب تتقلب حيرى في كف يده، تسكن لحديثه معها:

– قلت قد تكون صداقة، والأصدقاء كثر..

وقبل أن يكمل تساؤلاته، أغرقتها دمعة رجاء، تود لو تشده إليها، تضمه إلى كيانها، تؤكد له..

....

الوقت يزحف نحو منتصف الليل، تسمع دقات ساعتها المصلوبة على جدار الزمن، تلم جسدها المتكوم على رمال الشاطئ، تسلم روحها للأثير بعد طول انتظار، تقبض على جذوة البوح من كلماته إليها، ترنو لفضاء الأرض حيث بصره لازال معلقاً هناك، تسأل:

– كان بجواري هنا في ذات المكان، إلى أين أمضي؟.. وكيف أصل إليه؟.. وهو الباحث عني، تصعد كلماته إليَّ، يعاتبني حانياً:

– نسيت يا شمس أن تصعدي إليَّ، أنستك الأرض مواعيدنا وحكاياتنا؟!

تنقبض مسامات جلدها، تفسح طريقاً لدمعة الروح، تبحث عن حبل من أثير، تحكي له:

– لم تعد تصعد هناك، لأني التي تسكنك هنا، فإلى أين تمضي بي؟.. وإلى أين أمضي بك؟.. أردتك أن تعود، تقطع كل المسافات الأرضية، لأقرأ رحلة فراقنا من وهج عينيك، وجد وشوق وحنين، تعود تقلب أمامي علبة الثقاب، تشعل لفافات أعشق رائحتها، تحكي فيغالبنا السكون، وتغمر قلبينا الضحكات، إرجع إليَّ في يوم أرضي، أستقبل فيه نور الصبح من عينيك الحانيتين، تقول لي:

– أراك جميلة..

وأراك مرة أخرى في صباح مدينتنا البعيدة، يبتهج قلبي، نعود لأرض الزيتون، نلاحق ساعة الوقت قبل أن تغلق الطرقات بالحواجز والمتاريس..

* * * * *

الأنشودة السادسة والعشرون

"هل عندك شك أنك أجمل إمرأة في الدنيا؟"

تصدح الكلمات، تصلني عبر الأثير، وأنا أمسك مرآتي، أطالع وجهي، تنظرني عيناي، أرسم ملامحي من بحر عينيه، رأيت وجهي كما يراني، أحببت صورتي منه هو، دونه ستسقط مرآتي، وتتكسر كل المرايا..

"هل عندك شك؟"

ليس عندي شـك أن روحه تأتيني كل ليلة، تحملني على موجات أثيرية، تأخذني إليه، تتحول لغتنا إلى فضـاء روح نتقاسمها معاً..

يأتيني كل ليلة، يراني جميلة، فأطل بهية الروح، دونه يغتالني الفقد، تغادرني أنفاســـي، أســـقط وحيدة على محطات الانتظار..

* * * * *

الأنشودة السابعة والعشرون

تلم الشمس ضفائرها من جداول كلمات كتبها إليها:

- نكتب حكاياتنا، نخلص لها، نترك أنفاسنا فيها ونمضي..

ما الذي يبكيها هناك؟.. وحيدة دونه.. يحضرها العالم معه، وكيف تسكن الروح هاتفها، تلوم أياماً تمضي بها دون أن تلتقط حبالاً من أثير تطيرها إلى هناك.. قال لها:

- نحن من سكنوا أصواتهم..

هل كشف عن دمعات تلمع على حبال صوتها؟.. تنتظر أن يأتيها لتنثر نداها في رنة صوته.. تبوح له دون الكلام، تحاوره:

- ماذا تفعل هناك؟

- أكتب على صفحات بيضاء، عالقة على ضفاف الروح.. متعب أنا يا شمس..

- وكيف تأتيك الراحة.

- في أماكن أخذتنا الغفوة فيها..

طافت بروحها إلى هناك، حيث كانا، أخذتها رجفة البرد، قالت له:

- الشتاء تلتحفه سماؤنا، والنوات قادمة..

- أحتمي خلف زجاج سيارتي، أشعل لفافاتي التي تحبينها..

حط عليها السهوم، قالت:

- وتسمع صفير الريح الذي يكسر هدير المروحيات، تشدك عواصف بلادنا، تسكن معها على تلالنا وروابينا، تهدأ حين تستنشقها صدورنا وتسكن عظامنا.

- وتطلين بوجهك بهية يا شمس، تسكنين حبات المطر، حين تضرب زجاج سيارتي، تسيل، تخترق مساماتها التي فيها مساماتي..

بكت من صوته.. من صوتها.. قالت:

- هنا لا أرى العواصف، ولا تبللني حبات المطر، هنا أذهب إلى الجفاف، أرهف السمع، أعتصر كياني، حبة قلبي، ليصلني وشيش بحرنا، وهدير أمواجه حين تلطم وجه الصخر، ورياح تسبقها نوارسنا إلى الشمال، تحملها حواس تسكن روحي، تطل على كياني، لتأخذني إليك.

من صوته الساكنة فيه فاضت من روحه دمعة:

- لست وحدك هناك، لا تخافي نأي المسافات بيننا، بجواري أنت ولم تفارقيني.

تطرز الأثير من دمعات تعلقت على حبل هواء هناك:

– وأنا أراك معي دوماً، ولكنها الوحشة والحضور، أشتاق لعالم أرضي، وأنا التي بت في عالم من أثير، من هنا إلى هناك..

تطيرهما مروحيات تقصف على موجات الهواء، تسكن بحة صوتها الموجوع، هتف من لوعة خوفه عليها:

– أتسمعينني يا شمس؟

غابت الشمس على حبل الهواء، تغادر ليلاً جريحاً.. تطل نهاراً جديداً سيحمله إليها..

* * * * *

الأنشودة الثامنة والعشرون

حين يلامس خدي وجه وسادتي،تبدأ رحلتي والأثير، تسحبني استدارة القمر إلى فضائه الفضي، في الطريق إليك، سألت نفسي:

– ماذا أقص عليك؟.. هل أحكي لك حكاية من عالم أرضي؟.. هل أسر إليك عن دمعات جففتها على حبل أثير بعدما أغرقتني ملوحتها؟

عالم أرضي يكاد يسحقني، يدك عظامي، يسحب أنفاسي من صدري، يذبحها..

من عالم أرضي هل أسر إليك عنه؟.. وهل ستحمل لي بعضاً منه؟.. أم هو عالم الروح ألتقيك فيه بفضاء من أثير؟ بلون جناح حمامة بيضاء لا تحمل من رماد الأرض ما يلوث صفاءها.

قال لي:

– أشتاق إليك بحجم كوكبنا..

– وهل تدلني كيف تقاس مسافاته؟..

– زمن غير الزمن يا شمس، والمسافات هي أنا وأنت وما بيننا حبل هواء.

– وتعرف مذاقات أيام بعيدة يغيبك فيها الأثير ليعيدك إليَّ صـــافياً نقياً كجناح حمامة بيضـــاء تلامس روحي وتترك لي أنشودة الشوق أطيرها وراءك لموعد جديد على حبل هواء..

* * * * *

الأنشودة التاسعة والعشرون

الانتظار على محطة الأيام، وجهي أراه على ملامح الصبية، دمعتها رقراقة، تسقط خجلي، وأنا من توارت دمعاتها خلف خيوط الغسق، لا يراها أحد.. صبية تأخذني إلى التوهج.. إلى الشروق.. لا يبقى مني إلا بحة في صوتي.

جلدي معذب.. أحرقته قيلولة الطرقات على زمن الظهيرة.. البثور على جلدي، أتحسسها، أمر براحتي عليها، لا أعرف متى تظهر؟.. ومتى تغيب؟.. ومن أين تأتي؟!.. سألت الطبيبة قالت:

– الجلد يفتح طريقاً للألم، يمر به، يخرج إلى الدنيا، تلفحه نيران الحياة، يتراجع مذعوراً، عائداً ليسكنك مرة أخرى، يصر أن يتجذر فيك، يتوغل في أنحائك، يصل لآخر مداه، يوصد فتحات كان يظن أنها مسربة ومهربة.

أعود بالألم وأتعلم التعامل مع بثور تناثرت على مسامات جلدي.. كيان سكنني، أضمه ويضمني، الألم وأنا كيان وحيد وعالم ليس لنا.. هو العدم.. البثور.. والقشور.. الدليل والإدانة على ما كان، زيتونة عجوز.. يؤلمني صدري.. يوم حملتني زغلول حمام.. وحصان يشهدني في حضنها.. جلده يعذبه كجلدي.. وأنا وتينة لفحتها الشمس، فذابت عسلاً يقطر على أرض عطشى مشتاقة منذ الأزل البعيد الذي لم تشهده مآقينا، كانت التينة هي التينة، والزيتونة هي ذاتها الزيتونة، منذ الأزل البعيد أنا وأنت، تقف تشد فرعها، يميل إليك، يعطيك هدية، تلتقط تينة تودعها راحتى، يأتيني الأزل من خلف الأزمنة، يحضر أمامي، وأنت بجواري، تشهد فروع وأصول الزيتون أن تحمل همنا.. ليعرف الأزل أننا جئنا لائذين بفرع زيتونة وأحمال تين، نلوذ بضعفنا، فيحملنا قوة الحياة وسر الخليقة، وطريق يمتد أمامنا، ومن ينسى أزهاراً بنفسجية ذبلت في ليلة الرحيل وتفتحت في يد الغريب؟!.. لم يأته الخجل، بل خانته حواسه فلم يقدر أن يعود هناك دون الشمس.. أثار أقدامهما هناك لن تذروها الرياح.. وحين تشتاق لهبوبها نحو الشمال ستحملنا آثارنا أوراق شجر الزيتون، لتلقيها مرة أخرى، تنثرها لعودة قريبة..

يغتال الأبيض فينا.. يحاول السواد أن يجتاح مساحاتنا.. يقاوم الأبيض هنا وهناك.. لن نعيش الهزيمة، اليوم أكتب بلون أخضر.. عيني تختزن كل ما هو أخضر على صفحات بيضاء من زمن الشوق واللهفة.. فتحت الحاسوب، "ماجد" يرسل للبعيدة هناك أزهاراً غزاوية، فتحت لي الشاشة لوناً أخضر أخذني، ضمني، دثرني من برد الليل الطويل، شهقت من لهفتي!.. الأخضر ما أفرح قلبه، ريحان.. نعناع.. ميرامية.. يأتيني الأخضر على أزهار غزاوية بلون أصفر، هل رأيت معي كيف يستسلم الأصفر للأخضر؟!.. كيف تذوب الألوان في نضارة الروح الحالمة، ترنو للسكون والسلام..

* * * * *

الأنشودة الثلاثون

هل تريد أن تعرف دقائق ما قبل الصعود على حبل من هواء؟

الأرض غادرها أثيرها، جف غلافها، تقطعت كل حبال الهواء، أسقط في هوة الخوف، تزحف نحوي انكسارات جديدة تترصدني، تغتالني والأقدار، هي لحظات ما قبل حبل الهواء.. تعيدني دفقات دافئة من الوحشة والحنين، أتشكل امرأة من جديد، أبعث من رقادي، أنداح للنور، تغرقني غيوم شفافة متسربلة في ضباب أبيض، جلدي يلمع لضوء مكتبي، يعود البريق لعيني، تنزاح عن أوراقي كل الحروف المكتوبة عن كل الحكايات، تنتظر لأخط عليها من دفء روحي المعلقة على سفود الوقت تبحث عن حبل من هواء..

يعود الوقت بي، فيصيبني، تدور بي طواحين الهواء، تبهت ملامحي من عيون تتربص لحالي، تتصيد لحظات سعادتي، أسقط في مجرى نهر قد يحملني إليك..

البرد يلفحني، يسكن مسامات صدري، أتنفسه، يسري في دمي، ألقي على كتفي شالي الصوفي، عبثاً ما أحاول، البرودة تلفح صدري، تسكن جلدي، تسألني ابنتي:

– ما كل هذه الأغطية؟!.. أنا غطاء واحد يكفيني ويزيد عن حاجتي.

أرنو إلى النافذة أسأل:

– لم تصل إلينا بعد الريح الجفول القاسية، وأنا، من أين يأتيني البرد يصفع جلدي؟!.. في تلك الليلة، أنا ولفح البرد أمضي به للقاء من أثير على حبل هواء..

وهل تقطع كل هذا دقات هاتف غادره الصقيع والموت عن سبعة أيام، وألم أوراقي المبعثرة تحت ضوء شاحب وأكتب عليها من جديد..

* * * * *

يوم لفتني حائكة الملابس بشريط القياس، تراجعت عني، متسمرة النظرة على علامات كتبتها في دفترها، تشير بإصبعها قائلة:

– هذا مقاسك منذ أيام.. سيدتي لقد فقدت من وزنك، وهذا واضح على شريط القياس.

أكلتني الحيرة، أتفرس هيئتي أمام المرآة، أجافي دهشتي:

- كيف حدث هذا؟!.. أرى نفسي كما أنا..

تقطع عنى روح الجدل معها:

- لا.. عفوك.. أنظري.

عدت أدراجي أنا والطريق أسأل:

- أين ضاع مني هذا الوزن؟ وكيف فقدته دون أن أدري؟ وما الذي يتعبني؟!.. هل هي رحلات الأثير، أتخفف من أوزاني، لأصل إليك في سرعة أكبر، وأظل هناك لوقت أطول، أعزف عن طعام الأرض وشرابها إلى عالم من أثير..

الأنشودة الحادية والثلاثون

يقترب الوقت مني، يوجعني على محطة الأيام، الوقت يأتيني، وصوته المسافر نحوي على مدار أيام سبع، يصلني لاهثاً، معذباً، مشتاقاً، مقهوراً على الصمت والمكابرة، يسقط على رهافة سمعي، أتلقفه، فتسبقني اللهفة إليه، أعدو، أدق المسافات بقدمي لأعدمها، أذيبها، فيأتيني، أقرأ مقامات البوح من نور عينيه، دون حروف الكلام، يكبلني صوته، وما حيلتي إلا الوقوف، وما حيلتي إلا رهافة من سمع ألتقط عليها دبيب الحياة، هتفت بإسمه، تتفجر الضحكات في صدري، تغمره نشوة الفرح..

– ما أسعدني، أسمعك تفرحين، صوت الفرح يعبرني، زوادة رحلتي إلى هناك، على سبع أيام أمضي بها، وأعود إليك موجوعا، من ضعفي وهزال روحي، تنتشلني يداك، ضحكاتك الصبية العفية، بحة صوتك..

– وسيظل حبل الهواء؟

– سيظل يا شمس، وأنا المعلق بين سماء وأرض.

– والأثير، وأنا، وانت، ومحطات لنا بعيدة، أنسيت؟!..

– كيف أنسى وحالك هو حالي؟

نبرة صوته تذوي، تغيب، هل سقطت حبات بلورية من محجريه، بللت حبل الهواء، فحمل لي مرارة ووحشة تستقر في أذني، أشحذ صوتي إليه، لأعيده لي مرة أخرى، فالغياب طويل، سبع أيام على سفر طويل، يعلو صوتي، يغيب صوته، يسافر، وقد أخذ الشمس معه إلى مغيب، يكتب على وجهها، يرسم صورا لن تعرفها إلا هي.. على طريق سبع أيام من سفر طويل

.....

أين أنت من الأرض ومداراتها؟.. لا زالت قوانين الجذب تأخذك حيناً وتغفو عنك حيناً، وأنا التي تحللت منها، أتحسس جسدي فأقبض على النور يضيىء روحي، تخففت أنا من الصدمات، والضربات، التي قد تعيدني إلى عالم أرضي، أحسب أنك وصلت مداري خارج الأزمنة، وخارج نفايات الشهوات، اليوم وجدتك تعاني أوجاع الأرض، تعاني المسافة ما بين الروح والجسد، تراني ضاحكة، ترقص على شفتي وردة هامسة، خانتك عيناك هذه المرة، لأني لحظة الضحك، أنفلت بكل قدرتي إلى البكاء، هل رأيت البكاء على وجه الشمس؟.. يسيل على الأرض، تضمه إلى جوفها سعيراً محموماً، ينسرب من فوهة بركان..

.....

ما أروع النفس، الروح حين تأخذنا إلى العادة، عادة السير على وجه الماء، وعادة أن لا نأبه لغباء الآخرين من مدارات أرضية، على عادتي وما زلت أمشي حتى إلتقاء الصخر ببساط الرمل، وحتى إنطلاق الروح إلى أبعد مدى بحثاً عنك..

في الليل مضيت والأثير، لم أكن هنا، معي رحيق الكلمات، أنثرها في رحلتي خارج مدار الكون، دون الورق، دون الأقلام، دون الأحبار، كتبت إليك كلمات كثيرة.. قليلة.. ضاعت مني في ليلتي هذه محطة الأيام، كنت أحسبني فيها وهى الماضية عني، فأنا هناك، والأزمنة تركتها ورائي، أخذني الوقت، اليوم هو.. والأمس تركني ومضى، أسمع هدير المحركات، أصوات المارة، سكون النوم يسكن بيتي، الوقت يأخذني، يحيرني، أستعيد ذاكرتي الأرضية، وأعرف اليوم هو الأمس، وأنني على شرفة الوقت هنا في إنتظار، وأنا العائدة لتوي من رحلة خارج مدار الكون، الطيور تزورني، تأتي إليَّ، وأنا هناك على صدر الماء، وجهي يعانق فضاء الأرض، عصفوران يمران بي، ينثرا شدوهما على قلبي، يأخذا روحي هناك.. على موجات الأثير، يبللا طرف جناحيهما بماء البحر، يقطر على قلبي عذباً صافياً، يغيبا، يعودا إليَّ على موالهما، لم يغيرا ولم يبدلا، هل أتعلم طيرانهما؟ وأمضي.. أبحث عنك كما العصفور المغرد على جناح وليفته..

* * * * *

الأنشودة الثانية والثلاثون

من أطراف صوتك الراحل عني تلتقطني قبل أن أسقط في هوة الوحدة وأتلاشى في دائرة الانتظار، مستسلمة، معذبة بالفقد، فتعيدني إليك من بقايا كلمات ضمتني في خضم من أثير..

– تمضين حزينة يا شمس..

– وكيف أقبض على الفرحة وأنا الراحلة عنها؟!.. زادي أنفاس صـــدرك الســـاكنة في أذني، وحروف كلمات تعلقت على حبل هواء.

– حان الوقت يا شمس، عودي فدفؤك يسكن مساحاتي البيضاء منك.. عودي يا شمس إلى الشمس.. متى تشرقين على روحي هنا؟.. لك يا سيدتي الدلال، احك لي عن موعد أنثر فيه كلمات من روحي أنا وروحك أنت على أطياف الأرض هنا، وتنبت زهور الليلك في حضن الشوك، أقبض عليك روحاً هي روحي أنا..

– ونكتب كلماتنا تعويذة لعشاق، يأتون إلينا، ينفضون عنهم عذابات الأرض على مقام من أثير.

* * * * *

من رأى الشمس في صعود إلى أثير؟.. لماذا بكت وهي تجاهد صعودها؟ تتكئ بأحزانها على درجات تحملها إليه، تذيب المســافات ما بينهما، تبكي لحظات فراق تزحف نحوها، تصــيبها، تغتالها على طريق عودتها إلى الأرض..

وما تبقى لها غير هاتف ضيع عنوانها، يأخذ دفء صوتيهما إلى جليد وصقيع.

* * * * *

الأنشودة الثالثة والثلاثون

ساعة من أيام ستة تقترب دقاتها من وجد روحي، العالم حولي، تتسع دوائره في بحر أيامي الستة، تنظر لحظات فرحي، تسخر من حزني، تلقيني في هوة تأخذني، تتماوج الدوائر على أثير، تحول بيني وبينه، أتنفس الفراغ، أصرخ صدى، أشهق فزعاً..

في بحر أيامي الستة أشتاق للفرح معك، تدركني دوائر الزمن، تأخذني، تردني لصواعق لا أعرف كيف أتلقاها، تهرب الروح مني، ألاحقها بجسد يدميه الموت..

ساعة من أيام ستة أسترد ذاتي، أبحث عن أشيائي في محيط حجرتي، أعيد ترتيبها، أشيائي تبحث عنك، تراقص كلمات الحكاية، فنجان قهوتي يرضى أن يأخذه البرد بعد دفء، أرتشف كلماتك الساكنة فيه، وأعود إليه من فيض حكايتنا، وأيام ستة تأخذني لعبق شوق وحنين..

من صمت الانتظار، يخذلني صوتي، عصفور شوق غادره الحنين، نبرات صوتي تنسل إليك، مضى العمر بها تعزف لحنها، لم يسمعها أحد، لم يصفق لها أحد، ولم يحب أن يقتنيها أحد ولو جماد يلقى على الأرائك، قيثارة تبحث عن عمر جديد من حبل هواء..

أراك تأخذني، منتصر أنت، تكللني برهافة الروح، لنطير سوياً، وأزهر في ربيع من أثير..

* * * * *

تلامس دقات ساعتها تسأل:

– ماذا يحدث لو قطع حبل الهواء؟.. ماذا يحدث لو ظل صوتي في غفوة لستة أيام أخر، دون أن تطلقه عصفور شوق؟

هل أقدر على عذابات وقت جديد، وسخرية الزمن مني كلما اقترب موعدي الأثير..

غفى صوتي، من يسمعني، ومن يصدق أن الأثير أغلق سمع شمس، يدفع بكل موجاته، لا تدري أهو صوت أم نذير، من جسد أخذته العلة دون شكوى، وكيف تشيخ الروح؟ وكيف تذوي إلى العدم؟

غاب الأثير، عدت مخلوقاً إلى موت يسير، دائرة الزمن تتسع وتضيق، سخرياته قوة تصرع روحي..

* * * * *

تعبرني زغاريد الهواء، أتنفس نفحات صوتك، تسألني:

– تأخرت أنا يا شمس؟

أخاف إن رأيتني أجاهد الدمع في عيني، أخجل من سقوط حباته المقهورة على جلد وجهي، وكيف يكون الانتظار؟ وكيف يجف صوتي على أحبال الهواء؟!.. على رصيف الانتظار لساعة من أيام ستة، روح أنا تقتات الانتظار، زمناً دون الوصول، نواة يأس يأخذني إلى ضياع..

تأتيني.. أحملك قلادة لروح تسكنني..

الأنشودة الرابعة والثلاثون

يسألها مشاكساً:

– من أنت؟.. شمس أنت؟ أم ....، أم أنك سيدة أخرى؟

– أنا التي أنا.. أكون لك شمساً أكون.. والأخرى بعيدة، تلامسني لفحة نار على بياض العين.. شمس تغزل خيوطها، تتلقاها بحبة قلب، تغادر معك وراء المغيب.. تعيدها روحك حياة.. والأخرى أخذتها طرقات المدينة، حفر وأشواك وضباب..

أنا المولودة من روحك، فأكون شمساً، لي قلب ينبض وجد الحنين..

تسألني من أكون؟.. وأنت المعلق على حبل هواء..

شمس تراك وقد أسكنتها كأس الزنبقة، صارت امرأة تسكن روحها، صارت فراشة من أثير..

وساعة يسكنها العمر، هي عمري أنا.. عمرك أنت مع امرأة وفراشة في كأس الزنبقة، في رحلة عمر قصيرة، متى تغادر؟.. وكيف لها ببيت أمين؟!

تراني أنت، وأراك أنا بذات عين القلب التي لن تخطئ أبداً..

هل تدلني روحك على مسرب أغادر منه زمن السواد إلى بياض الأزمنة؟.. وفراشة تخرج من أجنحتها أسراب فراش تلونت بطعم الحياة، ثم تمضي إلى دروب من أثير، أو تعود إلى كأس الزنبقة تسكن روحها..

* * * * *

الأنشودة الخامسة والثلاثون

أنت وأنا إلى أين؟.. والأرض تحمل قلوب العاشقين، ينثرون كلماتهم، تورق في أعمارهم..

أنا وأنت وأرض ضاقت بنا، قطرانها يملأ صدرينا، يذيب أبصارنا، نقتلع جسدينا، نرنو لعالم بنيناه من أثير..

أنا التي أكتب كلماتي، يأخذني رجل الأرض، في قسوة وسفاح على لحم يسري فيه دمي، أستسلم للعدم وأنت من علمني كيف تذوب الأزمنة.. وتنعدم المسافات لأرواح خارج سجن الجسد.. ماذا تبقى مني غير نفحة تعبر إليك من أثير.. هل تســتطيع أن تتبينني وتعرفني؟ هائمة فوق الدروب، أتحرر من أرض لا يزرع فيها إلا السواد، وحصاد شوك ما أرى..

أي يد شــكلت قلبي وأودعت روحي لأجل هذا العالم، لأجل رجل الأرض المتجذر على دمعي المقهور، لا يعرف السقوط، لتجففه عباءة الشمس في نهار جديد.. ما تبقى منك ومني نطيره على موجات من أثير..

* * * * *

البرودة تأخذني، أذهب إلى الجفاف، أتكوم في فراشــي، أعتصــم بأوراق وقلم، أكتب فيها الحكاية، من قاع حدقة العين يركن العالم إلى زوال، يبتلعني الخوف في أحشائه، يمزقني، يطحنني، لم أعرفه يوماً، واليوم أخاف على الحكاية، من ذات وحيدة، أمضي في صحراء روحي، أتلظى على قطرة ندى.. تصلني همساتك على حبل هواء، أبثك خوفي من ضياع ساعة في عالم يتربص بنا، وهمنا أن تتوقف الأرض عن دورانها في ساعة عمر على حبل هواء..

تتندى الروح في كلمات من أثير:

– أسعدي يا شمس، وعيشي اللحظة معي هناك، أطردي الخوف من مسامات جلدك، لوذي بي، كيف تكونين ما بين الفوز والخسران؟

– أكون خارج رهانات الحياة على الأرض، تنتفي فيَّ موجات المد والجذر، أصير حالة من أزل..

صوته الحزين يعيدها لساعات الانتظار، كيف تسافر الفرحة لتحل لوعة الفراق في ساعة تأخذ العمر كله؟ فراق يحل وفرحة تمضي في لحظة يذوب فيها حبل هواء..

* * * * *

تصحو على يوم يصرخ في صدرها البكاء، تسأل:

- لماذا بكيت؟.. وأين؟

تهتف يقيناً:

- أقسم أنني باكية، هو ذات الفراق الذي يبكي حاله وحالي..

متعبة أنا يا صاحبي، متعب أنت، أصبحنا حالين في حال واحدة.

تنقر بصوتك على بوابة الغياب، تأخذك لساعات لا أعرف مساحتها، ولا أعرف متى تعيدك إليَّ، يسافر صوتك، يحمل في حقائبه ضحكاتنا، وحكاياتنا من حروف لم تكتمل.. تتناثر من حولك أشياء من بقايا الأرض، زيف، رهانات، الكسب والخسران، فقد ووحدة وأغتراب..

الأنشودة السادسة والثلاثون

تدخل صـــديقتي حجرتي وزمن غفى على غياب طويل، أراقب حركتها، أمرر يدي ببطء ثقيل على حواف مكتبي، أقطع رهبة الصمت:

- هنا أتنفس هواء نظيفاً.

تقفز الدهشة المغمسة بالفرحة من صوتها:

- أراها مرتبة هذه المرة!!

- دوماً تصل قمة الفوضى، ثم قمة الترتيب، لتعود فوضى المكان كما كانت.

* * * * *

زمن طويل لم يقاســمني أحد حجرتي، الليلة هي وأنا وجمرات اتقدت تحت حبات الكســتناء، لتنزع قشــورها، أقلبها، أرقب لسع النار عليها، تأخذها إلى الاحتراق، تتفسخ عن قلبها المحمص من لهيبها، نار وكستناء وأنا المتقلبة في حيرتي مع طقطقة القشور أسأل:

- هل زارني صوته الليلة على حبل هواء؟.. أم أنه الحلم!!.. ضحكاته تأتي إليَّ من حبات الكستناء، تصلني شجناً وألماً، يبثني مر شكواه:

- متعب أنا يا شمس..

صوته كان برداً وحنيناً، ونسمة شتاء وحيدة، على قلب وحيد معلق على حبل هواء:

- اليوم اعتلي سقف جديد بيت أولادي.

صــوته وحبات الكســتناء أعاداني للحظات أرضــية، لبيت يبنيه هناك، وأثير يأخذني إليه دون ســقف، دون الحوائط.

* * * * *

صاحبتي تلف الغطاء على جسدها، تنشد الدفء في ليلة باردة، تعلق نظرتها على ملامح وجهي، تسألني:

- أنام ومن حولي كل هذه الكتب؟!.. يا إلهي "نافخ البوق" و"الشعر المقدوني" أي حلم سأحلم الليلة؟

أصابتني تنهيدة صدرها، تهمس لي:

- حجرتك تأخذني إلى السكينة، هي عالم فريد يا شمس.

- حجرتي أنا!!

- المذياع يتحدث في هوائها، تتركينه يقول ما يشاء..

أوراقك راقدة ما بيني وبين الشاخصة في فضاء حجرتي، وأنا التي تتهيأ لرحلتها والأثير، هي لا تعرفني مغادرة بأحلام يطويها ليل المدينة، ووحدة تأكل أيامي، قميص النوم في يدي، أستعد لرحلتي، أتوشح بلون الزهر، لقميص نوم هدية، يعاكسني ضوء حجرتي، أمام المرأة أطالع هيئتي، أتحسس حواف قميصي حول رقبتي، خيوطه بيضاء حريرية تدخل في ثقوب وردية على هيئة أجنحة فراشة، صديقتي غيبها النوم، لا تدري أنني أصير امرأة فراشة، تتوجني قطرات من ندى أدخل بها كأس الزنبقة، وروح تأتي إليَّ، تأخذني عن الأرض، صاحبتي يعلو صوتها ويذوي، تتقلب في نزق، تزيح الغطاء، تتمتم من حكايات أرضية تهز منامها، لم أعد بجوارها، نامت وحيدة في ليلة سكنها البرد..

* * * * *

يقودك الشوق بحثاً عن كلمات مرسلة، تكتب فيها كل العناوين لتصل إليَّ، تبحث في شاشة مضيئة، تخاف عتمة تأخذك وبحة صوت تشاغب أيامك، شاشة تضيء لي، يقفز السهم مني يبحث عنك، لم أعثر على كلماتك، يرتعش السهم أمامي، ألوذ بعلية، تقابلني صوتاً حنوناً، تحكي عني أنني الطمأنينة والدفء، الحاضرة في الغياب..

كم أخاف عليك يا صغيرة من أيام زاحفة إلينا، قد تخلو من وقع خطانا عليها، فتقفين على محطة الانتظار وحيدة.. نتنفس الأثير ثلاثتنا، وأنت زهرة الياسمين الباقية بيننا، صافية نقية، إشراقة حياة، كوني القوية القادرة على حياة أرضية..

* * * * *

جنتني من بطن الغيمة، رأيت حالي، وجد مغمس بالقهر، ما إن تقترب ملامحك من وجهي، حتى تجتاحني دمعات من فراق، تسكن أمام شاشة فضية، هل ستدق دمعتي على أبجديات الكلام؟ وكيف لها؟!.. تبحث عني، تراني من هناك، تتبينني من بين كائنات الأرض، تهديني صوت علية، صغيرة هي على وجع الحكاية، نحبها، نريدها عفية قوية، تبقى من بعدنا لتحكي عن الشمس التي كانت..

وأنت يا علية من رحم الشمس ستولد فيك شمسنا الأبدية..

* * * * *

الأنشودة السابعة والثلاثون

سن قلمي يرتجف بين أناملي، وأنت من علمني كيف تسكن الروح سنون أقلامنا، كيف تكتبنا خضراء على أزمنة بيضـــاء، أراك بعيداً وحيداً، فألجأ لأريكتي الخشـــبية، ألتصـــق بها هروباً، قطع الحلوى أمامي، أتذوقها مرارة، وحكاية لا تذوب، تســـتقر في ســـقف الحلق، لا تذهب عني إلا بمذاق الملح من دمعات تســـقط مثلي وحيدة..

صـبيتي تأخذها شـاشـة التلفاز، لا أحد يراني غيرك من هناك.. الشـتاء يكشـف عن لحمه المقدد من صـقيع الغرب، وأنا أتمرد عليه، ألتحف الغليان، آخذ من الشمس لسع جمرات..

من يقول إنني ســـمعت صـــوتك على حبل هواء، ويقيني أنه ابنك الآتي من خلف الحصـــار، يحمل معزوفته الحزينة، لحظة قفل الهاتف، ارتعدت في قلبي الحيرة:

– انه أنت، وكيف يكون هو؟!

كلماته الأخيرة أخذتني إليك:

– لا تقلقي عليَّ..

وأنت في مقام الحضور، تمسح عن وجهي مساحات الفقد، تهمس لروحي:

– لا تجزعي.. لا تحزني.. لا تخافي..

* * * * *

حضرت المواعيد، يستقبلني، أحتضن الحكاية، يختلس النظر إليَّ، وأنا أعرف صفحته التي يقرأها..

يقبض على آلة التصوير، يحتار من يختار ليلتقط لي صورة، يحملها في الرحيل، يطيرني حمامة بيضاء، تحط على وجوه حاضـــرة معه، فرحته تغمرني، الوطن يحضـــر أمامي، مرتبك الحركة هو، يحكي لي كل الأشـــياء الجميلة التي يحبها، يدرك مرحلته التي يعيش، يرضى بأن يحمل في جيب سترته أزاهير الأمل، يرى العالم على زمان أبيض، قص لي حكايته في أربعة مقاطع يعرفها جيداً:

"انتفاضة، أوسلو، السلطة، الحصار"

هذه ســـنوات عمره التي يراها جميلة، في تينك العينين ترقد نظرتك للحياة، زهرات وجمرات، يحمل فيهما بياض الروح، منك أنت..

* * * * *

كان رفيقي لأمسية دافئة، أنتظر المصعد بجواره، عاجلني بهاجس صدره:

– هل لك أن تقنعي أبي بأن يقيم هنا؟

– ويمضي عنكم؟!

– متعب أبي، ولابد أن يعيش..

صفق باب المصعد، أنا وهو وقلبي يصفق بعدد الصاعدين والهابطين، الحيرة تأكلني، ما الذي رآه فيك؟.. هل رأى ما رأيت أنت؟.. وحيدان يتقاسمان العذابات معاً.. وصبيتي بجواري لا ترى دمعات يمزقها الفقد والضياع..

* * * * *

حكى لي عن صاحب له، يكتب إليه على مدار خمس سنوات، واليوم يلتقي به في باحة المكتبة:

– من مدينة الخليل صاحبي، عرفته دون أن يتحدث إليَّ.

مثلك هو، عين قلبه لا تخطئ طريقها.. يسألني عن حالي، وكيف أقطع الوقت:

– يوم تحضرين لغزة، كوني معنا، سنأخذك لكل الأماكن..

هو لا يعرف أماكن لنا هناك..

قهوته خالية من السكر، وفنجانك معي على حرارته، وأنا القابضة على حفنة من مذاق مسكر، بقلب جسور قال:

– أود البقاء هنا، وأطيل المدة لأيام أخر..

صادني الخوف عليه من طرقات يحلم بأن يقطعها وتلحق به عوادم المدن، وهو ابن الحكاية، عين قلبه تقوده ليعيش زماننا هنا وهناك..

– إلى أين تود الذهاب هنا؟

– ضيفك الأسير أنا يا سيدتي، هكذا يقولون..

يا ألهي!.. ما أقرأه على ضفاف النهر أسمعه من ابنك هنا!!..

* * * * *

ضيفي الأسير تركني للحظات في هوة الحيرة، عاد إليَّ ببسمة مسافرة يحمل كوفية، كنت أخمن أنها له، تحميه من برد الليل، قصرت المسافة ما بيني وبينه، يمد يده يناولها لي:

– هي هدية..

كوفية وسياج وعبق أنفاس من هناك تنسل إلى روحي، لملمتها ملء كفي، تكومت في راحة يدي، أفلتها على كتفي، أسمع زفر أنفاس يطلقها من صدره، أرادني بها من لحظة أن رآني هنا.. جلست أمامه، تلفني كوفية وسياج، كوفية تدلت منها خيوط عقدت على الحكاية، أنت لم تره كيف يختلس النظر إليَّ، يملأ عينيه بامرأة وكوفية، النشوة تتراقص في إشراقة وجهه، أنه أدخلني سياج الوطن، ألتفت، أرنو طرف كتفي الذي ينظره، فيحيل نظره للفراغ نحو الشمال، ألحق به صوب نوارسنا الباقية هناك، ووقت يزحف نحوي لساعة على حبل هواء من أيام ستة، كيف أتهيأ لطقس الحضور وأنا العائدة بكوفية وسياج..

الأنشودة الثامنة والثلاثون

امرأة من صوت أنا، في راحة أكون على حبل هواء، نلون عذاباتنا بأجمل الألوان..

امرأة من صــوت أنا.. أموت على الأرض وأحيا معك في أثير.. نبضــك وميض شــرر من نبض قلبي، يترك خطوطاً تغور في جلد كفك..

يوم ودعت صديقتي، وقفت وهي وحقائب مسافرة، أسألها مدينتها، رأتني أستعيدها بين ضفاف النيل، ضمتني ببسمة مودعة، رفعت كفها تشير على بطن يدها، النيل حفر مجراه على جلدها، والخرطوم نقشت أماكنها، تقرأ لي مدينتها، تعلمني كيف المضي وراء خطوط غائرة، وأنا التي ترسم من صورتها وشماً في كف يدك، تعلمني وأنا العارفة..

تسألني:

– أين أنت مني؟

فمن يسأل الروح عن حالها؟!.. نسيت يا صاحبي يوم جئتني وشربنا قهوتنا، تناولت بعضاً من كتب تقلب فيها، أرقب حالك بين حوائط رسمت عليها حكايتي، فقرأتها معي، قلت لي:

– هي حالة هروب جميلة..

وأنت يا من تعرفني أهرب إليك لائذة من حريق الأرض..

ما أنا بوهم.. ما أنا بعابثة..

وغزالة هاربة تحملها صــديقتي هدية، هناك تعيش أجمل حالات الهروب.. كيف يلين خشــب الأبنوس في يد صانعه، يلوي عنق غزالة هاربة، لانت له لتحضر إليَّ، تعيش حالتي وأنت.. دوماً أنا في طقس الحضور لائذة بعد الهروب..

* * * * *

هل تعرف كيف يطاردني ضباب الأرض؟.. كيف يغتال مساحات بيضاء نقية أتنفس بها..

في كوخ خشبي ملقى على الشاطئ، قطي وأنا والمدينة تكبر وتتسع، تلتهم كل الموجودات، خلت نفسي بعيدة وقطي عن روح التهدم والإبادة، صوت المدينة يفح في أذني:

– سأهدم الكوخ، وأعيد البناء، تتسع الحجرات، أصمم طرازاً جديداً، أبواباً حديثة، أرائك وثيرة، مطبخاً أمريكياً رائع التصميم.

أذهب للضياع، أتردى في تهلكة القسوة، أتذكر قطي هناك، غافلاً عن مكائد المدينة، رجفة قلبي تأخذني إليه، يتشمم رائحتي، يموء لي، يفرد جسده في حجري، يلف ساعديه على ساقي، يرخي رقبته، يذهب في غفوة، دمعتي أحرقت زغباً على أهدابه، جفل مني، قرأ لوعتي عليه، قفز، ولى في هروب نحو المدى، قطي يعيش الهروب بعيداً عني، هل نسميه أجمل حالات الهروب، يسبق خطانا إلى عالم من أثير..

بالأمس جبت الأزقة في صقيع المدينة، أحتمي بمعطفي، وفضاء رحل عنه ضباب الأرض، أرنو بعيني إليه، فيصافح وجهي استدارة القمر، الأرض غارقة في بلل المطر، طينها يعيق خطواتي، أتلمس وقع أقدامي، تنفلت نظرتي على كوخ من خشب، يترنح في شحوب نوره ليصل إليَّ، تسمرت خطوتي أمامه، قد أرى قلباً له من خلف غبش النافذة، عصفور وقفص، يقف على أرجوحة الانتظار، ينطلق لأجمل حالات الهروب، يصير عصفور شوق من أثير..

كوخ من خشب أخفته أزقة المدينة، هل يصله فحيحها، فيطيره، يحط مهشماً، يذوي بكل ذكريات ضمها..

* * * * *

ابنك مع صبيتي عبر ممر آمن، تحرسهم نجوم سيناء، من زمن صحوة السلاح.. يحكي لها..

– ممر آمن يأخذنا إلى رام الله.. الخليل.. نابلس.. القدس..

أظل أنا وعلية زنبقة وحيدة، كفين رقيقين، تدق بهما على أزرار الكمبيوتر، تعلن عن أجمل حالات الهروب، بعد أن كتب الوشم حروف استغاثتها:

"سوس الأرض ينخر عظامي"

زنبقة وحيدة تستغيث من الغليان..

زنبقة وحيدة تعيد نفسها من جديد، تتهيأ لميلاد الهروب إلى الأثير..

* * * * *

الأنشودة التاسعة والثلاثون

نمت الليلة على محطة صوتك المسافر، صوتك يطوي غدي، بات هو الحضور في فراغ أمضي فيه من صبح إلى ليل، تعيدني الأمكنة، تستردني..

الأمكنة تشبهني، تبكي، تتمرر، تصرخ، تستغيث، أعود أنا والكوخ، لا أسمع وقع خطاي على حشائش اغتسلت ببخار الندى، ولا رأيت كيف أدرت المفتاح ببابه، دلفت والحزن يأكلني، ليسقط مواؤه في قلبي، ألتفت حولي، ورائي هو يجر الخطى، زاحفاً يأتيني، قوائمه مرتخية، متورمة، انطرح أمامي في أنين ومواء، ألقيت ما بيدي، أحدب عليه، يمد لي رقبته، يضغط بها على أصابعي، فتنغرس في صدره، يكز بأنيابه على جلدي، كمن يتهيأ لقنص فريسة مستسلمة، يعود يمسد بها، يجاهد في ساعديه، ليحوط يدي بهما، يتشمم ما بقى مني..

لحظات وكان عمال الإزالة يستعدون لنقل كل محتويات الكوخ، تحمل الأرائك، الحشيات، فُرش، عين النار، فناجين قهوتنا، إبريق الشاي..

كانت أيديهم خشنة مشققة، مترية، ترفع كل الأشياء، وتبقى مساحات خاوية مما كان، تراب من الصدأ يتناثر من بقايا كانت، لونه يميل للسواد المحروق، تذوي كل الذكريات إلى حريق، والقط على ذهول مثلي أنا، يتخبط بين خواء الحوائط.. ناديته، تضخم صوتي في فراغ الصدى، رآني امرأة أخرى، همهم لي، استقام شعره الأبيض، نفرت مخالبه، يزحف نحو إناء الرمل، يلقي بجسده فيه، يود لو يدفن نفسه ولا يعود..

وليت أنا خارجاً، تطالعني عربة تحمل كل متاع كان، تمنيت حبلاً من هواء، أجدل عليه دمعة فراق، أبثك ما بت فيه، أمسكت بصوتك معلقاً في زحام القاهرة، تحكي لي عن هموم أرضية.. الأرض جوعى، تدك عظامنا، تبتلعنا..

* * * * *

الأنشودة الاربعون

يسألها عن علية، ترسل إليه دمعة بمداد كلماتها تختزن حكايات لها من هناك..

أبحث عنها، فهي جسر محبة، وقلب الكلام، لا يأخذك التعب من كلمات تكتبها وحيداً..

دونها تقف كل معاني الكلمات..

دونها تموت الزهرة في فضاء الكون..

ابحث عنها وهاتها بين نجمات القمر، من حضن الغيب وسخريات القدر..

علية زنبقة وحيدة مثل لبنان وفلسطين تقاتل..

قلت لها بأن طفلها سيأتي محبة وسلام، ولن يأت تتلقفه فوهات البنادق ورؤوس الصواريخ..

* * * * *

الأنشودة الحادية والأربعون

أطوي جسدي على صخور الشاطئ، أعب النسائم في صدري، تترقرق الريح لي، تصافح وجهي، تداعب أهداب ثوبي، تطيرني لحضن الحكاية، على منفذ العبور من رفح، يصارع لحظات ما قبل الصعود للحافلة، وإغلاق النوافذ ووصد الأبواب..

* * * * *

تذبحني تنهيدة قلبي، تذهب عني تغتسل بموج البحر، تحن لها ضحكة في صدري، يعاتبني بنبرة صوته المسافر:

- فرحة أنت يا شمس؟!

ترفع وجهها، تمتطي غيمات راحلة، لا تعيقها معابر أو حدود، تهيم في مدارات الكون البعيدة، تهديه شذى من أنفاسها:

- ما أسعدني هذا اليوم..

- تكذبين يا شمس..

- ....

تناديه على حبل هواء، تسمع صفق أبواب، وهدير حافلة تطوي ما تبقى من مسافات..

* * * * *

هوى حبل الهواء، غام الفضاء، شحبت شعاعات الشمس، زبد البحر يذيب النوارس، تستوي الرمال عن ثقوب حفرتها أرتال (السلطعون)، وشيش البحر واندفاعه للصخر، يقذفها الموج على حواف لحظات عبثية، تعود إليها تنهيدتها، تسكن روحها، تسألها:

- ما الذي تبقى منه؟

تودع رأسها بين راحتيها، تقبض على الهواء، يلامس جلد كفها دفء معطفه لحظة، إلتقطته من جوارها ملقى وحيداً ينتظر، كل ما ضمته منه معطف صوفي لم تأنس بدفئه طويلاً، ليعود معه وحيداً دونها، إلى عالم الأرض..

* * * * *

يجتاحه الرفض، الغليان، يجاهد للانفلات من براثنها، تشده إلى عمق العمق.. تمور شمس في داخله للحظة شروق، يشحذ قواه ليعود إليها من بين الثقوب، من خلف الجدران، على حواف النوافذ الموصدة، ليلتقط حبل هواء، تصلها منه، ذبذبات صوت حزين، ما بين مد وجذر، ضحكة يسخر بها من مفارقات اللعبة، تسأله:

- أين أنت؟

كيف يصارحها بأنه الهارب إليها على حبل هواء؟!.. ويعود طفلاً يقرأ الملامة في عيون الكبار، ويخاف توقيع العقاب.. وكيف يحكي لها عن حصار يعتصر كيانه، يتنفس الأرق والحذر، وكيف يختزل زمانه ما بين نقطتين، امرأة وامرأة..

يرنو لرفيقة عمره، يقترب منها، يداعبها وهي المستسلمة له، يزيح خصلات من شعرها في حضن كفه، وامرأة تقابل عمره على ضفة أخرى، وكلماته التي تقول:

– هي لي.. وأنت لي..

تصرخ:

– لا.. أنا التي أحلق دوماً في بيوت من أثير، أنا التي قطعت الرحلة عدواً ولهاثاً لأمضي وحيدة..

يبكي عمره معها على حبل هواء.. تبكي ما تراه منه..

يسألها:

– هل تبكينني في يوم فراق؟

وكم بكت في هدأة الليل أناساً يشبهونها، مضوا عنها، تعرف أنها لابد وأن تصل لحافة النهاية، في الطريق تتساقط دمعات لا تقدر على التقاطها، قد تزهر يوماً ذكرى لها وله.. ولآخرين..

* * * * *

يأخذها بين مد وجذر:

– عرفتك يا شمس.. أمسكت بك امرأة من أثير.. رأيتك المرأة التي..

من بحة صوتها تعرف على رنين أجراس محطمة:

– لم يمسك بي أحد قط!..

– تكابرين ولازلت صغيرة..! أنتظرتك على حبل هواء، من صمتي المذبوح، بعد لهاث وتقطع أنفاس، كادت الأرض تفتك بي، ولكني خرجت عنها إليك، اصعدي وتبيني أين أنا منك..

– تطلبني على مقامات الحضور وأنت من قال إنني كل النساء في امرأة واحدة، ولك في شمس التي تريد، تطلبني وأنت من يعرف كيف تطلقني من الأرض إلى عالمك هناك..

بين أرض وأثير أراك، أما هناك فلا أتبين شمسي منك..

– التقيتك على محطة الأفول، قبضت على يدي تشدني إليك بقوة زلزال يعصف بي، فحال بيني وبينك أخدود وجدار..

ما بين هنا وهناك ترصدني، تراني امرأة في كل النساء، يجتاحك رجل أرضي، تضربك كل قوانين الحياة، تلوذ برفيقتك، قد تخمد جذوة يشتد أوارها في صدرك..

أهرب منك ومنها إلى فضاء لم تطأه روحي من قبل..

دوماً أنا لائذة إلى حالات من هروب جميل..

* * * * *

الأنشودة الثانية والأربعون

تغتال وجهي الدموع، ترتعش أناملي الملقاة على مقود سيارتي، أنتشلها، أتحسس ساقي، تقرصني تحت جلدي أوجاع معدة، تأتي وتذهب عني، أسدل أهدابي الذاوية، أجرّجر ذاكرتي عن ليلتي..
أوقن أن الزاد لم يطأ فمي، تنقبض معدتي على الوهن والألم، نثار ذاكرة علق على بؤبؤ عيني، وجه صاحبتي، أخذتني تنهيدة صدري إليها.. زادها الذي قدمته لي اليوم..
– يا إلهي نسيت كل هذا!!.. حبة بطاطا مهروسة باللبن، دفء صدرها لحظة طوقتني بذراعيها، أعادتني طفلة على نهنهات صغيرة..
رنين الهاتف يضئ عتمة الطريق، قرأت اسمه، يضئ ويعتم، شخصت إلى الشاشة والسهوم وأنا..
وجهه المرضوض، عيناه الغائرتان، كف يده تنقبض وتنبسط في وجهي، يبتهل أن يلفني في كفن ويلقي بي في عتمة البرية، يتوعد لأن يئد حكاياتي، ويكسر كلماتي، يقطع أوراقي، يذروها في وجه الريح..

* * * * *

أستكين في قلب زنبقة وحيدة، تعيدني طفلة وقد أخافها وحش يسكن الغابات، ألمح قدميه العملاقتين وقد نفر شعرهما، صارت أشواكاً دامية، يتهدل من خلف كتفيه وعلى ساقيه، أسنانه تحتل وجهه متلمظاً على فريسة يدور حولها، يدك الأرض يعلن لها عن اقتراب موعده معها..

* * * * *

وزنبقة تشدني إلى القاع، تغسلني بماء الندى، أتخلق لها من جديد، أصير فراشة من بياض الأثير، أخربش على وريقاتها، لأصعد إلى فضاء يجذبني، أتنفس فيه أثير الحكايات..

* * * * *

ينتفض الهاتف، يسكت، تجتاح شاشته العتمة..
التقطت حبات دمع من روحي، أسكبها لأنثرها على موج الأثير، قد تورق فرحاً، وتغتسل بندف السحب، تنداح إلى ضوء من حكاية..

* * * * *

الأنشودة الثالثة والأربعون

ألتقط صوته وقد غلفه الوهن والضياع، أسأله عن حاله:

- بعيد أنا يا شمس، لم أكتب ، لم أقرأ..

طافت بروحي ضحكة اهتز لها فضاء الحكاية:

- ولكني قرأت (إخطية) إميل حبيبي، سروة وشجرة لا تثمر تشبه الكينيا، تتجذر وتعلو، علوت معها، كدتك تشدني إلى آخر حدود الفضاء، رأيت الأرض ووجه (إخطية) وجسد سروة، وأنا أزداد علواً، أصير روحاً دون الجسد..

يغمر روحيهما سكون الحضور، تطفو بصوتها تسأله:

- أين أنت؟

- مريض، يسكنني الألم.

تراوده بضحكة هاربة:

- معي كنت روحاً من بلور، أرصدها في حضوري وغيابي، احك لي ما بدل حالك يا صاحبي؟

- ألن تكفي يا شمس، ماذا تريدين أن أحكي لك؟

- لا شيء سوى أن تفيض بما يؤلمك، لا تجزع مني..

غافلها بضحكة الساخر العارف، يود أن يقول لها: "أنت من تجزع وتخاف الحضور، أي حلة ترتدين وتبدلي من أنماط ثيابك؟!.. أنا الذي يراك، أنا من يعرفك.."

* * * * *

صوتك يسكنه الوهن، وصوتها قيثارة تضرب على أوتارها كيفما تشاء، حادة، هادئة، حانقة، حائرة، حزينة، وتر حزنها مشدود على دماء فاضت عن مجرى عروقها، تسأل الطبيب:

- دمك يا شمس في ثورة، يموج في جسدك، يعيش الغليان، يرتفع منسوبه فيك، ينهك قواك..

بنبرة صوت مشروخة:

- هو ما أشعر به.

ثورتي تتأجج في صدري، ما بين لحمي ودمي، لا أريد الانفجار.. أتحاشى تلك اللحظة الخبيثة، أحفظ أنفاسي باردة، أقبع في مكاني، فلا أريد الانفجار.. لا أريد..

قد يأتيني صـــبحاً حانياً على قلبي، قد تكون حمامة بيضـــاء يتبعها وليف اعتادا مروري كل يوم، ينقران وجه الأرض على جفاف وقحط، قد تكون حبات شـــوفان ملقاة في غيبة من الزمان وغدره، يقتاتان بها، فيعيشـــان، يحلقان، يرتفعان، تظهر لهما في مكان ما سـنابل حبلى تنتظر الحصـاد.. يرتفعان، يزدادان علواً، مثل سـروة، ينظران وجه إخطية، يقتربان من عين الشمس، يغمرهما الوهج، يلتمعان، يعودان وقد تخففا من أحزان الأرض، يكتسيان بريش من تبر الذهب..

الأنشودة الرابعة والأربعون

من زمن لم أدق على الحروف لأكتب إليك..

من عمرنا عرفناه "رمسيس" شامخاً متحدياً..

سقطت دموعي هذا الصباح لحظة رأيته على صفحات الجرائد ماضياً عبر طرقات القاهرة، تلفه ضماضات، يئن من أوجاعه..

هل تشاطرني بعضاً من حزني ونلحق به، قد نصل إليه في كلمات هي الباقية نكتبها إليه..

* * * * *

الأنشودة الخامسة والأربعون

صغيرتي أخذها الشاطئ.. جديلتها من خيوط الشمس، تضمخها بحنطة الأرض، نقشت النجوم وأصداف البحر على جلد يديها.. تعدو، قد تمسك بالمسافات الهاربة منها، تقابلها رفيقتها، جدائلها تسكنها عتمة الليل، وفي عينيها غلالة حبلى بالحكاية..

تنطرحان على الرمال، تخطان بأصابعهما حروفاً وأسماء.. ابنتي تكتبني على رمال سيناء..

تكتب عن مدينة ووطن..

تقرأ رفيقتها، تسأل في دهشة:

– عجب لعيون الناس هنا؟!.. كيف عرفوك بأنك الغريبة؟!.. وأنا!.. أنا لم يعرفني أحد.. يقولون أني من هنا، ملامحي لم تدلهم! أما أنت، يسألونك عن الوطن فتحكي لهم، ومن حكايات أمك ترسمين المدن ورفاق لها..

شخصت لها، بدهشة تغمرها:

– لم يعرفوا أنك عراقية!

– لم يعرفوا..

– لأن أباك هجر العراق منذ زمن، وامتطى صدر البحر، باتت كل المدن مدينته، لم تعد بغداد حلماً يقوده إلى ترابها..

الرمال تنسل من بين أناملها، فتعلق ذراتها بطرف جديلتها، عينها شاخصة في تراب الأرض:

– غابت ملامح مدينتك عنك، ضيعتك الغربة، أخذت ميراثاً دون الهوية، تمرين بالطرقات لا يتبينونك من أين أتيت، أما أنا.. هذه سيناء وعلى مرمى بصر من ذات الأرض يولد وطن آخر.. أسماء المدن منقوشة على جلدي، الشمس في جدائلي تشرق من هناك..

* * * * *

صغيرتي ترسم من صوتي وطن، تطلبني على حبل هواء، أطل عليها، تسألني رفيقتها.. تسألني العراق..

– قولي لها ألا تحزن، يوم يعود أبوها إلى هناك ستعود هي وترجع بغداد..

* * * * *

تحرق صدري تنهيدة مسافرة، أي مفارقة أعيش؟!

صغيرتي والعراق.. هل أحكي لها عن أول نقطة حدودية "عبور رفح" أم.. العبور إلى بوابات العراق..

كيف أرسم لها خرائط قد تغيبها الذاكرة..

* * * * *

وليلة عبرت بها سيناء، تحرسك عتمة تسلمك لنور الفجر على معبر رفح.. سيناء تئن بأوجاعها، يحملها جسدك ويختزن كل التواريخ من فجر الحضارة.. سيناء دوماً نعبر إليها في رداء الليل، لتسكن آلامها أجسادنا..

* * * * *

الأنشودة السادسة والأربعون

ينفجر البحارة من قلب فرقاطة تفترش صـــدر البحر، تذبح الرمال، تهرس الأصــداف، تنثر الذعر في عين الأسـماك، يتناثر بيضـها، يسـحبه المد بعيداً، فلا يعرف موعد فقسـه، ولا يتعرف ملح الأرض على ما سـيخرج منها، هل يصلح أن يكون طعاماً من رزق البحر؟.. أم ستتحول إلى وحوش برية ضارية، تنفث سمومها في بياض الماء لينداح إلى قتامة لزجة تحتل مساحات الحياة التي كانت..

* * * * *

البحارة يجوســون الشــواطئ، يبحثون في عيون مدينة لا تســدل أهدابها عنهم، تأخذهم الريبة، يتنفســون الخوف، وفرقاطة تشدو لهم أغنية الحرب والنصر، تهدأ روحهم، يستعيدون أنفاسهم، فتلمع الأقراط في آذانهم.
تسأل صبيتي رفيقتها مشيرة إليهم:

- من يكونون؟!

صوتها المغموس ببرود البحر يصل إلى أحدهم، يلتفت عائداً إليهما، تتلعثم كلماته في فمه، تسعفه تحية يلقي بها، يحكي عن اسمه ووطنه الذي تركه خلف بيداء المحيط، هارباً من حديد البرونز، وبرودة الجدران..
تلفح وجهه نســمات صــحراء صــامتة على الحكاية، يهوي بمرفقه على ســاق شــجرة مالت للريح، يكز على أسنانه، تدوي صرخته، يدق الأرض بقدميه:

- لا أريد أن أكون هنا، لا أريد الحرب، لا أريد الوصول لشط العرب..

أدار ظهره للارض يخاطب البحر، قد تأخذ هدأة الموج كلماته إلى حضـــن أم تلتحف الانتظار يلقون بنا هناك، منا من يعود، ومنا من تدفنه رمال الصحاري، تذيب عظامنا آبار النفط، نعود فتيلاً يشعل السمارات في بيوت معتمة، فتائل منقوعة في زيت النفط، من دمنا يضئ خيالات باهتة..
يقذفونا في لجة الموج، فيلفظ أجسادنا، وآخرون تندفع المياة من فتحات أنوفهم، وتسد أشلاء وبقايا من لحم السمك أفواههم، يأخذهم القاع، يبتلعهم بحر العرب..

* * * * *

صبيتي تلتقطني ملاذاً في صوت على حبل هواء، تسألني عن شط العرب وحكاية الغريب.. كيف يلتقي بهن وهن بنات الحكاية، ترسو فرقاطتهم على شاطئ لتعقد المسافة ما بين العراق وسيناء..

* * * * *

أخذتها من يدها لترى معي كيف تحط النوارس على زبد الموج، يقبل ريشــها، تغتســل به، تحلق عالياً، وهي تقطر بماء البحر، أشارت إليَّ:

- يا إلهي النوارس تحلق نحو الشمس..

* * * * *

وأنت يا صـــاحبي، تلتحف الوحدة في زاوية بعيدة، لا يتبينك من حولك ولكني أراك كما أرى نفســـي، تؤرقك الحكاية وكيف ســـيكون الغد فيها.. ليس معك إلا حبل هواء يأخذك لبيت من أثير، تصـــير فيه طائراً تبحث عني في ثنايا السحب،تجدني وقد اكتسيت بريش من ورق الزنابق، والدمع في عيني صار بلورياً، تسكن فيه وترى معي كيف يعبث الانسان بالأرض وكيف يلتهم الأخضر فيها، ويدفن براعم البنفسج قبل أن تتفتح للشمس..

براعم البنفسج تنشد الخلاص من ورد الشوك في بلادنا..

* * * * *

برودة روحي تصل إلى علية، تدور في حيرتها، تهتدي لرداء صوفي مغزول بخيوط سوداء، طيرته لي هدية، اللون الأسود يغمرني.

هل لسواده أن يمحو من روحي لون البنفسج؟

هل طال رماد الأرض علية، فأستحال سواداً يطوي فؤادها؟

الأخضر يورق في قلبها، والأبيض في عينيها، ستعود للبنفسج، زنبقة تنبت وريقات تقطف وجه الندى..

أسمع صوتها من عمق الليل، ينشد ملاذاً، برجع الصدى.. ترجع الأسماء، عليه ترنو إلى الشمس في الحلم.. وشمس الحقيقة غلفها الضباب..

الشمس تفترش صدرها، تغزل من أنفاسها الخائفة شمساً لا تغادرنا..

* * * * *

تسألني:

- ألم يشتق قلبك يا شمس؟

- كيف أشتاق وأنت معي ولم تخذلني، لم تكن يوماً بعيداً، وأنت من طوى المسافات كلها وسكن الغربة.

وتسأل عن رفاق لي، طيرت ضحكة ماكرة:

- هل أصابتك الغيرة؟!.. الغيرة هي من ضباب الأرض الممزوج بدخان الحرائق، العشاق يغارون، يتناكدون، يرتابون، فينقشع الوقت عنهم، ليجدوا أنفسهم وقد ضيعوا كل ما جمعوه.

يتقطع حبل الهواء، أكاد أراه ينسل من فضاء الحكاية، يزهر صوته عائداً:

- أغار يا شمس.. يوم أنضب من كل عطاء، وأصير إلى جفاف، ولا يبقى معي سوى الغيرة، لتأكلني وتشهد نهايتي..

عطائي دون الحدود، فيض نهر أنا، فمن يحاذيني؟.. من يقترب مني؟

أفيض في الأرض، وأطير لفضاء الحكاية..

حكايتي أنت، من يستطيع الصعود؟

لا أرى أحداً يا شمس..

أنا وأنت.. والأرض..

* * * * *

الأنشودة السابعة والأربعون

أســلم خطواتي لسـوق الذهب، واجهات وراءها قلائد من لون الشـمس.. ينصـهر معدن الأرض من شـعلة النار ابنة الشمس العنيدة..

عن أي شــيء أبحث هنا؟!.. والعين لا تكف، تلتقط من مشـاهد الحلي المعلقة، أحجار من تراب الأرض غارقة فيها..

أدفع الباب الزجاجي، لأقع في حصـار دائرة من الذهب، يريني الرجل، وأنتقي، شـرد بصـري على هلال ونجمة، أشرت إليه بلهفة تسبقني:

– إليَّ به..

* * * * *

يبتهج قلب الصبية، تشد صندوق الحكايات، تنتشل منه قرطاً، تريني إياه:

– أمي هذا هلال من ذهب، نقشـــت في قلبه نجمة، أحتفظ به منذ زمن هدية، واليوم تهديني قلادة!.. نجمة فضية في قلب هلال من ذهب!

* * * * *

لم أنس يا صاحبي في ليال صافية، هلالاً يضئ الطريق لنجمة لا تخطئ طريقها إليه، يأخذني الوقت طويلاً، أراقب اقترابها منه، ما أن تصير إليه حتى يطبق عليها.. فيكون بدراً ينير عتمة الأرض..

* * * * *

يغيب الهلال، تضـيع نجمة، أبحث عنهما في واجهات الذهب، مسـتلقيان على سـطح مخملي، هلال ونجمة ذهبية، لم يغادرا القرط الهدية، والقلادة الهدية..

– تفاجئينني يا أمي!

* * * * *

أشياء صغيرة قد تكتمل الأدوار بها، أنسحب يوماً فأترك رسائلي، هلال ونجمة..

اليوم لا تعرف هي.. وستعرف غداً..

قد تكون لها حكاية تشبه حكايتي معك..

* * * * *

الأنشودة الثامنة والأربعون

الحولة في قلب طبرية..

سيناء في قلب النقب..

قرط وقلادة.. من نجمة وهلال..

بحارة الفرقاطة تدمي أقدامهم أعشاب الصحراء، يضيعهم هلال يمتطي الهروب وراء نجمته الضائعة، لتكتمل بهما منظومة الكون الأبدية..

* * * * *

يكتبون في أوراق الحكاية، تسقط دمعاتهم هلعاً وفزعاً..

يفترشون تراب الأرض، يسألون عن قمر في سماء العراق، وهل يصلون إليه فيصير بدراً.. هلالاً.. أم يعيش الهروب؟

يمسكون دفاترهم، يسطرون عليها:

– أماه.. نجوب الصحاري، نقطع حدوداً رسمتها أيدينا وكتبنا عليها أسماءنا، لا نعرف كيف تقاس المسافات هنا..

سيناء تبتلعنا.. إيلات تغرقنا..

طبرية أمامي تشـــبه بيض النعام، وكنعانيون من مدينة "حماة" القديمة، حرارة ينابيعها تلهب جلدي، على عتبة بازلتية أغرق في حوض طبرية والحولة..

النوارس تمتطي وجه الموج، تغوص للقاع وبأجنحتها تمســح وجه الشـمس، تحلق بخيوط من ذهب، ترتفع عن أعيننا، تغيب لتعود مرة أخرى.

نفتح الخرائط، نحوط المدن بدوائر حمراء، مدن لا تعرفنا ولا نعرفها.. الأحمر يلطخ أيدينا..

* * * * *

– بيتي نقطة على خريطة بعيدة، أنام فيها، وقد نحمل جثامين لبيت آخر لا أعرف طول المســافة لأصـل إليه، قد أكون ملقى عليه.. تبتلعني سيناء.. تغرقني إيلات.. قد يلقون بنا في طبرية..

أماه لقد نقشت شوارع تكساس على ساعدي وشماً، اسم مدرستي، شارع بيتي، وجوه أصدقائي وجيراني.. هنا يقولون:

– الوطن يسكننا..

أما أنا فالوطن يسكن ساعدي بلون أخضر، تبهت خطوطه في تابوت ينقلني إلى هناك..

* * * * *

الأنشودة التاسعة والأربعون

نجمة في قلب هلال.. وحكاية من قلب الحكاية..

صبيتي تأخذني إلى نبض قلبها، تجلسني جوارها، طفلة أصير، تحدق في وجهي، تقبض على ساعدي تهمس:

– اليوم جاءتني رسالة منه، قال لي "عيناي جميلتان" سألني عن عدم ردي على هاتفه حين يطلبني، ودون أن يسمع عناء إجابتي، صارحني بخجلي منه، قال الحقيقة، كيف عرفني، كيف رآني يا أمي؟!

ارتدت إلى الوراء، تلقي بثقلها على وسادتها وقد حط عليها السهوم، تتمتم:

– لا أحب أن يعرفني، لا أحب أن يراني وهو البعيد هناك..

من بين كلماتها الشاردة إلى فضاء الحكاية، رأيت شمس وكلمات كتبتها إليها:

"أمسكت بك من بين الكلمات، فعرفتك"

يغسلني الدمع يوم جاءتني كلمات على صفحات بيضاء تبحث عني وأنت المقيم وأنا الزائرة..

عادت إليَّ تلتمس محطة راحة في صدري:

– لم يقل لي أحد من قبل أن لي عينين جميلتين، قالوا عن جدائلي، هدية الشمس، أما عيناي!!

– بنيتي هو يرى فيهما جمالاً قد لا يراه سواه..

أسمع نبض قلبها يسبق أنفاسها، الحيرة تضربها، شدت صندوق حكاياتها، فتحت لي أوراق كتب عليها:

– أمي تعبت من أجلنا، أبي رحل عنا منذ زمن، لا أحفظ ملامح وجهه، لا أملك سوى طموحي على خط الحياة، وأنت؟

النورس بلغ الرشد، لا يملك إلا قلبه، يفرد جناحيه باتساع رقعة الحكاية.. هل طاله عذاب العاشق حين يخرج من روحه ويمارس الموت اختياراً.

أين أنت من عتبة الخروج؟!.. وأنت العائد دوماً لا تعرف غير قانون الخلود.

* * * * *

الأنشودة الخمسون

تقول لي مشاكساً:

– لن آتيك على حبل هواء في موعدنا القادم.

تنفلت ضحكتي، تسخر من لحظة غائمة في عين القدر.

يحضر موعدنا على عقارب تأكل الوقت، صوت دورانها يطن في أذني، ينتهي للعدم وحسابات ماض جديد، مشاكستك أخذتني للسؤال الساكن في حضن الغيب:

– كيف يكون الأمر لو سكن الهواء، وتسرب الأثير من فضاء الحكاية؟

وأنت من يختزن في صدره مرارة البوح وعذاباته، تراني ولا تراني من لحظة أوقعتني في لجة الحيرة، ترتجف روحك، تقبض على حبل هواء، تستعيد روح شمس، تنتشلها من عتي لحظة غادرة تحوم على دروب المجهول..

تعيدني إليك لنبدأ الحكاية:

– عدت إليك يا شمس ولم أستطع.

– هكذا!!.. إذن فلماذا تلوح بقطع حبال الهواء؟

– لم أستطع.. كان شوقي يسبقني إليك، أنت يا من تشتاقين وتسكنين كأس الزنبقة، دوماً على محطة من وجد الانتظار..

ابحثي عني.. تعالي إليَّ يا امرأة الحضور..

خافت أن تنشد على وتره الحزين، تنتقي له من حكايات قريبة، وحكايات بعيدة:

– أشكو لك من أقلام تكتب من أرواح معتمة.

– هاتي حكاياتهم وانس أسماءهم، نتنفس في محراب الكلمات ولا نعبأ بأسماء من كتبوها.

همست إليه طفلة تحبو على حبل هواء:

– هل ستضيع أسماؤنا؟

– كيف نضيع ونحن من يسيطر عليها؟ نتقافز، نعدو، يشدنا الحنين، يأخذنا لأبجديات لم نطأها من قبل..

البحر عين بلورية تكشف عن حال العاشقين، تضحك لهم الشمس، تراقب أحوالهم، ترتعد النوارس للحظات الرحيل، تطلق صراخاً حاداً، تنقر وجه الماء، تطير بأنشودة الشمس المعلقة على حبل هواء، تتناثر منها على صفحة الماء، تلمها في موعد لنا، ندخل فيه طقس ميلاد جديد.

تعود تسأله حاله:

- راض أنا يا شمس، أبتهج ليومي وغدي.

- لا ينقصك شيء؟

- أنت من يعرف، وأنت لا ينقصك شيء؟

- أنا من أعتادت الفقد، هل لك أن تتصور أنني متكاملة في كل ما حولي ولا ينقصني شيء، في هذه اللحظة لن أكون شـمس التي تبحث عنها وتراها على حبال الهواء، ومن بحة صـوتها ترسـمها، تقبض عليها ما بين الفواصـل وفراغات ما بين السـطور، واضـحة، تنداح للغموض، عاشـقة، هاربة، مشـرقة، باكية من قلب ناي مشروخ.

* * * * *

الأنشودة الحادية والخمسون

هل تمسك النوارس بدفاتر مكتوبة، تعبر بيداء المحيط، قبل أن تبعثرها الذاكرة:

– أبي كان مقاتلاً في فيتنام، ابتلعته الأرض هناك، غاص في مستنقعاتها، وأنا هنا ما بين صحراء النقب وسيناء.

بدوية الصحراء تطرز ثوبها بلون الدم النازف منا، تسألني بلغة العرب ولا أفهم كلماتها، الطفل مطروح على كتفها، وجهه بلون رمال الصحراء، تحت قرص الشمس أسدل أهدابه، يكاد يموت عطشاً، أفتح قربة الماء لترويه، تخلع من يدها سوارها، الماء هنا بثمن الفضة.. تظل النقب في قلب سيناء، نقرأ في تاريخ الحكاية عن حرب وموت..

أمه بدوية تحكي ولا نفهم منها، تشير إلى تراب الأرض، إلى ابنها، تخلع سوار الفضة، هنا من مات عطشاً، هي تعرف الأرض، ميعاد عطش وموعد ارتواء ترسم الحكاية صوراً على ثوبها..

* * * * *

تتهدل أوراق الزهر، تستسلم لليل، يتعرى قلبها لفضاء الكون، فيمطره بالندى، تشهق متسائلة:

– أماه أوراق تذهب إلى الموت، على وشك السقوط، خلعت الأوراق عن قلبها، قلوب الزهر عارية.

من سكينة روحها تحكي لها:

– من نور الصبح تستنهض أوراقها، تحوطها ثانية، فلا نتبينها في عتمة الليل، من يراها تستلقي لخيوط الشمس معانقة لا يعرف أنها زهرات الليل الذابلة.

* * * * *

الليل يعانق الريح التي تصفع زجاج نافذتي، كل ما حولي تأخذه العتمة، ليس من مخلوق سواي، هل تكون معي؟.. يا من أخذتك أوجاعي وألقت بك على طريق الآلام، فمشيته معي، حرة أنا كطيور النورس، أحلق أيان شئت ومتى رغبت، تراني وأنت هناك من خلف بوابات الغياب، هل تهجع روحك مثلي لخروج الشمس من الغيب توقظ الأرض الغافية، ويذوب قلبك لحظة رحيلها مودعة، آخذة طريقها لفراشها الليلي؟..

الليل يهزني، يصيرني صغيرة وحيدة، يخفي النوارس وراء سكينته، أستسلم لبريق النجوم الناعمة، تبهت في وجه الريح العاتية، تخلع لونها في عجساء الليل، أسمع هدير الموج يتدحرج نحو الأرض، صياح النوارس يبتر هياجها، ما الذي يدعوها للصياح بهذا الأسى؟.. يتطاير ريشها فزعاً، أرتجف من هول ما أرى، نورسان يتماسكان بمنقاريهما، ينفلتان ألماً، لينطلقا ثانية إلى فضاء حر.

تتطاير أوراق دفاتري على طيات أثيرية، يذرفها دمعاً تروي أرضاً عطشى، أوراق دفاتري تذهب عني، ووجهي المصلوب على حبل هواء يأخذ عافيتي، لا أقوى على لمها ثانية، الريح تصر في أذني، تبعثر حكايتنا، أين أنت لتأتي إليَّ وتأخذني بعيداً، نعيد كتابة ما تبقى لنا، ما نراه ونشعر به.. السكينة تحتل قلبي، أهو الوهن أم الاستسلام؟.. كيف أدرب نفسي على الغياب، فتألفه عظامي ويتجذر في دمي..

* * * * *

الأرض تموج بالغليان، أنفاسها حارة، أخاف لو جرحها الليل بضوئه الباهت أن تغدو حمراء، تعلن عن جرحها، وهي التي لن تقهر أبداً، وأنا التائهة ما بين أرض وأثير، هل تنقاد لي الريح وأبصر النور؟.. وتنداح الجبال ودياناً عامرة بفيض محبة، تطلق زفرات رثائها لحالي، زهرات البنفسج تقسم ألا تزهر دون الشمس، اليوم رأيت براعمها تتفتح رغم اليد التي عبثت وبعثرت بذورها، لتصير إلى شتات، أنا وهي نحمل قلباً عركته الحياة، ننبعث مع بزوغ الفجر أكثر قوة، فمن يضاهينا؟!.. ينبض في عروقي قلب واهن، عودي ساق عشب جف ماؤه، تدحرجه نسائم البحر هنا وهناك.. المرأة المولعة بالصور، امرأة مدينة أنا لا يسير في دربها إلا الأنقياء الأوفياء..

* * * * *

يسألها:

– كيف أراك وأنا المسجون هنا، مكبلاً في قيد أرضي.

– هل أصابتك الأرض ووقعت فريسة مكرها، ولم تعد تعرف طريقاً للصعود إليَّ؟

ضحكت، فرقصت على بحة صوتها أحبال الهواء، ينبسط صوتها انبساط موج البحر، صافياً كمرآة، تتعرى من كل الحقائق كما الصخور من رغوة المد البيضاء، تنزلق مثل أسماك رشيقة وسط أعشاب بحرية..

هل سمعت عن امرأة تتوق لهوى أثيري، ترنو إليه من خلف نوافذ موصدة، يحرسها سجان الليل، فلفظت أمنياتها أنفاساً على شرفة سجنها..

– ألن تكفي يا شمس؟ احك لي، وصفي أثيرك الذي تحبين؟

رجفت روحها، تهرب أنفاسها، تستجمع من روحها فيضاً من عطاء:

– لي أثير من سحاب ألتحف به من صقيع الأرض، ونهر وبحيرة، وديان وقمم جبلية يضمونني في أيام البراكين والحمم حين تصرخ من قلب الأرض، أبني عليها أمنياتي، أنثرها وألمها من عصف الرياح العاتيات، أخبئها في صدري، فأهيم بها روحاً طليقة دون سجان، دون الانسان الذي يزرع سواداً، ويقتل زهرات البنفسج، أقبض على أنفاسي، أزفرها وأطير لأبني بيتاً من أثير..

– هل سأجدك إن أفلحت ووصلت إليك؟

– ستجدني، فرحيلي كان مبكراً عن هذا العالم الأرضي..

ستجدني وقد سكنتني روح مسالمة، هي ذاتها شمس المرأة المشاكسة العاشقة في محيط أثيري، وقد نأت بعيداً هناك.

الأنشودة الثانية والخمسون

وطني عابر سبيل، يمرق سهماً يشق قلبي نصفين، أحبو وراء ظله، أقتفي أثراً لقلبي المشطور محمولاً في جراب يلقيه على كتفه الصامد لنوات قادمة، عزيمته تهرس أحجار الطريق، يزيحها ويمضي..

عابر سـبيل يحمل مدينتي، وأنهاري، ويحفظ مواعيد فيضـاني، دمعاتي تعلقت بأهداب عباءته، تكتب كلمات رجاء وعشق في وطن عابر سبيل.. أسأل من فيض أسى:

– على أي المحطات يقف؟.. وأي مدن طواها في مخلاته؟.. هل يتركني أجوس بيدي وأخرج بمدينتي المتكومة بين أسماء وأسماء..

تلتقطها يدي، وأقرأ عنواني، وأراها تتوسد الحلم في راحة يدي لدقيقة واحدة أمامي، فأودع بها حزني وفقدي..

* * * * *

ماتت روحي.. وسجى الجسد في المستشفى الباردة، تسحب أرواح جائعة، تواقة لفراق..

من هذا المكان خرج أبي مسالماً، وغداً تخرج أمي مستسلمة..

عابر سبيل يا وطن.. أنا هنا أراها أمامي وقد لفتها ملاءة بيضاء، شدت لما وراء رأسها، أنفها الشامخ لم ينثن حتى آخر لحظة، هو الشاهد على وجع فراقها..

تهمس في أذني، تبثني حنانها، فنمى في صلب عظامي:

– أريدك نجمة لا تحاذيها نجمات الفضاء.

أمي من هذه الليلة أكتب لك بما لم أكتبه من قبل، في ليلة أصـبحت فيها طفلتي الوحيدة، وأنا أم جارت الدنيا عليها، الحقائق أراها ناصعة مرسومة على وجهك الطفولي، الليلة احتلني الهرم وانكسرت على ذاتي، أشخص لفضاء حر قد يحملني إليك..

قد تحركين أطرافك الباردة وتضـمينني، فتسـكنين الدفء في بدني.. قد تزيحين دمعاً تكلس في مقلتي، فصـار بلوراً يعكس من مرايا قلبي الحزين، من زمن رأيتني، ورأتني امرأة ليست من قبيلة العرب، تسأل عن سر حزني المقيم.

في هذه الليلة هل ترفعين عني بعضـاً منه؟.. أم أن ما يسـكنك جاءني في ليلة الرحيل، وصـرت ملاذاً لوطن عابر سبيل هو عشقي وهيامي..

* * * * *

الأنشودة الثالثة والخمسون

يوم رحيلك دونته في ذاكرتي، أرقام تواريخه فردية، لا تقبل القسمة، أحادية، وحيدة، وأنا التي من روحك هل أمضي أحادية في أجندة؟

صــغيرتي التي ســكن الخوف مقلتيها، تهرب إليَّ تناشــدني أن أبدو حمامة بيضــاء تحلق في أثير من فرح، تتبعني، تنفض عنها رماد الأرض المغمس بالخوف، ولعبة الموت التي هي غدر إلى أزل.. البراءة وبياض الأزمنة يطلان من عينيها، يرتجف صوتها، تتوه في لجة الحيرة تسألني:

– هل تتركينني يوماً؟

– هو آت يا حبيبتي..

– سأتوه وحيدة..

– لك القبيلة كلها، ارجعي إليها، ســتجدين روحي فيهم، وتحبين وطناً لأمك، عابر ســبيل، ســتمضــين عمرك تنتظرين لحظات يمر بك فيها، أو تمرين به وتعرفين أنني هناك.

– أماه.. سألتك يوماً هل ستحتملين فراق أمك ولم تردي، اليوم أراك وقد نؤت بحمل سنوات عمرك القادمة التي لم تعيشيها بعد، تبدين عجوزاً وقد ثكل قلبها موت الأبناء والأحفاد.

هل أخذت أمي حاضري وغدي في لحظة فراق أبدية؟

* * * * *

بعيدة كنت يا أمي، تقطعين الأرض بين مدارات الطول والعرض، تلتقمين من طعام المدن، تتنفســين هواء الغربة، وتقطعين الطرقات عدواً، لتلحقي بوطن عابر سبيل، تلتقطين على كتفيه أنفاسك، تدغدغ روحك نسائم العودة، تقولين:

– لا مذاق يماثل طعامنا، ولا هواء نتنفسه إلا في أوطاننا، رمالنا هناك صفراء هدية الذهب من روح الشمس.

أماه.. هل عدت إليَّ بعد طول فراق؟ أقتفي أثرك في عالم أثيري، ترينني ناصــعة عن كل الحقائق، وتموت لغة الكلام التي سدت ما بيننا، كنت اتوه فيها لأجد كلمة أصل بها إليك، وأرجع خائبة، باكية على نهر الطرقات.. اليوم ســترينني وتدخلين قلبي، تقاســمينني روحي وتعرفين ما لم تمهلك الحياة بطولها أن تدركيه مني، كنت تمتطين الأسفار وتعشقين التجوال في مخلاة ملقاة على كتف وطن عابر سبيل يمضي بنا ولا يقيم، اليوم أخذت رحلة مغايرة، رحلة أبدية أزلية، تقاسمينني دمعاً حراً يلمع من روحك ومضات توقظ فيك السبات، تعودين لي، تستعيدين قلبي وأستعيد فيك روحي..

تباً لهذه الأرض التي غربتنا بعد لقاء..

تباً لأيام مهلكات، تغتال فيَّ فرحة أنت صـاحبتها، وعزة هي الهدية منك، تباً لكل المعاني الجائرة وكل الذكريات المظلمة التي تأخذنا إلى هلاك.. اليوم أنت لي، لي أنا دون شريك..

قرطي تلمع أحجاره في أذني، يطن، أسـمع معزوفة الرحيل وأنشـودة الفراق، وأذني الصـائمة على حكاية قرط خلعتيه من أذنيك هدية، يومها حاولت أن أبقيه لك، قلت لي:

– يوم موتي ستكونين بعيدة، وسيخلعنه عني نسوة غريبات، وتأخذهم الحيرة، كيف يردّونه لصاحبته، بيدي أنا يا حبيبتي أخلعه عني ليزين أذنك، اليوم تلمع أحجاره في أذني، بريقه يأخذني لعين الشـمس، تتعلقين على وهج قرط يبحث عن صاحبته التي هي أنت..

* * * * *

الأنشودة الرابعة والخمسون

سقط عقد الياسمين المعلق على مشجب صغير في رف مكتبي وأخذ معه نجمة من أحجار ليلكية، الريح تزحف على البرية، تحمل ما جف من أوراق صبارها وريحانها، تطيرها رسائل في فضاء أثيري، من يراها؟ من يقبض على الحلم؟.. وهل للأحلام عمر؟ هل تهرم ويطولها رحلة العمر الطويلة؟

حلمي لازال صغيراً، لم يهبط إلى الأرض..

ما تبقى لي منه مشـــاهد تبعد وتقترب، أم هي جزء من روحي الهاربة عني، أذكر منه أنها تركتني أياماً أجوب الدار دونها، يوم رأيتها تفتح الباب علينا هربت منها ولذت بدموعي، تســـمع حشـــرجات بكائي، وكلما اجتمعنا منفردتين تهمس في أذني:

– لم قابلتني بالدموع وهربت مني؟!

هل أصـارحها أنني بدونها عود وحيد، أحاذي الجدار في جلوســي؟ أحمل نفس جرحها والغياب، وبطلة وجهها في قلب الدار عادت جداولي إلى روافدها، والنوارس بجناحيها تشـق قلب حكاياتي معها، تنسـاب تروي عطش الأرض في مجرى أحلام صغيرة..

* * * * *

هناك تراني وأنا المشدودة إلى عمق سحيق، يأخذني للجة الحزن، أنداح إليه، أنفلت من وجه ريح عصوف تصفر بنغم حزين، ترتع في كل مطارحها التي كانت، فرشة تحب أن تستلقي عليها، حفيف تصفح أوراق كتبها التي تحب، أريكتها، ونضـــد حمل لســـنوات طويلة منفضـــة دخانها، مذاق قهوتها بات بعيداً، رائحة لفافاتها المشتعلة ذوت، بعثرت إلى عدم، خزانتها وما لفته وخبأته من أسرارها..

الريح العبوس تجرح الفضاء بأنيابها، تبعثر المخبوء من حكايات تحرق ما تبقى من ذكريات..

إلا أنا وحلمي الذي لازال صــغيراً يحبو على أهداب الحكايا المخبوءة، أســمع رنة صــوتها المجروح تخرج من العدم.. باق ولم يرحل مع قافلة المغيب..

* * * * *

زهرة الأقحوان تتوسد الليل، تخلع حلة متثائبة، تقبل وجه الشمس، تتبعها عاشقان أبديان، تدور زهراتها أينما يدور قرص الشمس، تشرئب لها عمودية، تنعطف وراءها، تلم أوراقها وتلقيها في عباءة الليل، تتوسد قطرات الندى فيغرقها البلل، تنشج، تنوح، تزهر من جديد.

* * * * *

زهرة أنـا.. ورقـة من زهور الأقحوان، تبحـث عنـك في ليـل يغرقـه الجفـاء، الليـل خواء، ولا تظل إلا أحبـال من هواء، نكتب ونسطر عليها وجيعة الأرض، من يعرف لغة أغرد بها؟ من يقرأ سطور كلماتي؟ أنثر أنشودتي، لم يمر بها أحد.. لم يحفظها الصـغار ولا عرفها الكبار، أناشـيدي معلقة على حبل هواء وأنت السـاكن فيه، تراني دونهم، دون من يجوبون الأرض ينبشون في جوفها ليزرعوا السواد، الأرض تفور بالبركان، الموج يضرب وجه الصـخر، يعلو هادراً، صـاخباً، يرتد ملتاعاً، لا يشـبع من دواره وهياجه، تتلاحق اندفاعاته ووثباته، يمزق وجه الحقيقة، فتلمع تحت قرص الشـمس، وزهور الأقحوان تدور وراءها، هدير الموج يوجع روحي، أبوح لفضـاء الأرض وأشدو أنشودة وحيدة..

أنا من وجه الشمس.. يأخذني غروب ويعيدني شروق..

* * * * *

الأنشودة الخامسة والخمسون

من رآني عائدة إلى الحياة أنشـــر الدفء بين ثنايا أوراقي، ورجفة الحروف على ســـن قلمي، تنداح نحوي قريبة وتجفل هاربة بعيدة؟

من يرافقني ويسمع اصطفاق الضلوع بالضلوع، وثورة الروح في سجن الجسد، ودمعاً من لهيب يرقد فيه وهج الوجع، لا يقدر على الفكاك مني..

حروفي اليوم تذبح بياض الصفحات "الموقعة أدناه على ما تركته مرحومة في أعالي السماء".

كم من المرات قرأتها بين صـــــفحات الكتب، وعلى أعمدة الجرائد، أمر بها عابرة دون نية الوقوف، ما الذي أصابني من هذه الكلمة؟!.. مرحومة هي، وأنا التي ترث فيها، تظل الأرض وحشاياها، وخبايا لا يدركها عقلي، سيظل اللقب لصاحبته ولن ينمحي وقد أشترك معها في اسم واحد يوجع قلب ابنتي..

هل كان عهداً أن أزرف الدمع في جوف الليل، أستردها في خلوة حزني عليها، أسمع صوتها يهدهد دمعي:

– لم البكاء يا حبيبتي؟.. أسرّي إليَّ بما يوجع قلبك..

الليلة أسر إليها بأنني المعذبة بفراقها، صورتها تنقر وجه ذاكرتي، نائمة تتوسد أحلامها، ابتسامة راحلة تحتل مساحة وجهها، نظرة معانقة لوجوه الصغار من حولها..

نبض قلبي تصحبه أنفاسي الملتاعة، كيف أبطئ من تدافعها وأسترد هدوئي وسلامي؟.. مالي أنا بأشيائها؟.. قلائد، حرائر، أســاور، وأقراط، ليت كل ما أقول تســوق ذكراها إليَّ، كل منا يتذكر بعد حالة نســيان، كيف لي بذكري وأنا صاحبتها؟ أنا وهي معا، نفتح أوراقنا ونغلقها، حتى أنفاسي تعلو وتهبط في قلبٍ هي الساكنة فيه، تهبط على روحي من فضاء أثيري:

– رويدك يا صــغيرتي، كم أخاف على قلبك من عوادم الأرض، من هناك أراك ناصــعة كبياض الحلم، أنا هناك على محطة الوصول، أنتظر طيفك، وسأتبينك من بين كل العائدين، فأنا التي أنت، لن تضيعك الروح أبداً..

* * * * *

ســـقط القمر في قلب الشـــمس، اختفت الطيور، ولفح البرد وجه الأرض، عوت الريح، فاض لون الليلك في روح البنفسج فجرح قلب الأثير، علت الأصوات مهللة لروح البنفسج التي تزيح العتمة، الحمم تفيض من عين الشمس، عطارد، الزهرة، المريخ، ورحلة البحث عن سياج الذهب والفوز به، خاتم ذهبي يخط سطراً من ذهب، يتوهج ما بين السماء والأرض، البنفسج والشمس وقمر يسكن مدارها، صوتك يغزل معاتباً:

– ألم يتعب قلبك من الرقص بالقلم على حروف من نار؟!

ضحكتي تبتر حبال الهواء، فتعود تتلاحم من جديد:

- أراك تتعب مني يا صاحبي، دعني كما تراني، أموت وأحيا من جديد، تراني في العدم، وتجدني حياة..

ما بال أهل الأرض لا يفهمون حكاية الشمس والقمر في لحظات كونية فريدة!! القمر يمضي متسحباً، يشق وجه الفضاء، يصل إليها، يأخذهم الخوف، تسكنهم الهواجس من عين تنين نارية تلتهم عين الحياة من الشمس، يرسمون أجنحة تحاول الانفلات من لحظة اكتمال القمر عليها، فتحل العتمة ثوباً حريرياً من أثير، يسدل على العالم بعد عناء الطريق، كيف للعيون أن تصل إليهما؟!.. تتراقص النجوم، ترتدي أبهى ما لديها، تخطف من نور أبصارهم، يستعينون بمرئيات تحجب عنهم رهبة اللحظة التي تولد منها سكينة الروح.

أنا وأنت من سكن الأثير، نحلق في فجوة من نار على حفاف خاتم الذهب الحائم بين الكواكب، نحلق بعيداً عن وجيب القلوب لحظة حلت العتمة وأخذتنا لعرس سماوي، قمر في قلب الشمس على خط ما بين السماء والأرض، يضمخنا لون الليلك، نعود نسكن زهور البنفسج.

* * * * *

الأنشودة السادسة والخمسون

الوهن يعصف بجسدي المرضوض في فراشي، أجاهد لرفع ساعدي، إأقبض على روح قلمي، أخط كلمات تنسل إلى روافدي الساكنة على خارطة قلبي الموجوع، صبيتي تسألني مشواراً نجوب فيه الأسواق، نشتري ونقتني، تأخذني تنهيدة إليها:

– متعبة أنا..

تضـــحك لي البراءة فيها، أو تبكيني، هي تكابر ما يمور في كيانها، تقترب من فراشـــي، يغريها الجلوس على حافة سريري، ولمس ساعدي لتلسعني برودة أناملها، تقبض على كف يدي، ترقص في فمها الكلمات مشاغبة:

– يدك دافئة!.. أما أنا..

كف يدي يسري بدفئه في أنامل الصغيرة، الحمم تعتمل في كياني، أصارع البقاء فيها، أسمع دقات الهاتف، شقيقتي تعاني مثلي، هي عائدة من نوم أثيري، صوتها ينزع الوهن من جسدي، صوتي يعيدها إليَّ، حلقت معها في فضاء خارج مدار الأرض، شرخنا غلالة الفقد والأسى، صوتي يطن على حبال الهواء، صوتان لا يعرفان الخوف، يهربان من وجع الحكاية، نثرنا بذور الحب فأينعت الدروب، انجذبنا هبوطاً على حواف برك صافية..

* * * * *

– ابنة الأثير أنا.. منزلي الحب في السماء، أمقت القيد والأغلال، تبحث عني ابتسامة جريحة صاعدة من أعماق الأرض، أهداب ثوبي تطلق سراح جسدي، أركن للخواء حتى القاع، أرنو للنجوم النائية، أسأل.. هل تخشى الاقتراب من الأرض؟.. فتطفو بين ثنايا السحب المنفوشة كحمم بركانية متجمدة، جسدي يخترق كل هذا دون أدنى مقاومة، تلفني القبة السماوية، تتلألأ لي زرقة النهار، تزاحمني نجوم الليل، الأفواه تلوك الأرض بأشداق فولاذية، أتحسس دمعة تعلقت على أطراف رموشي، أخاف أن تسقط فتشعل حرائق، وأنت من تلومني عن اغترابي وبعدي، وأنني سكنت الأرض ونأت المســافات ما بيني وبين الأثير.. كيف وأنت من رآني جســداً هنا وروحاً هناك؟! هل نســيت؟!.. والوقت لم يعد على محطات الوصول..

أنت من يعرف أن الأثير هو أماننا، بعيداً عن مصــائب تتصــيدنا على الأرض، في ليلة الأمس أســلمت قدمي للطريق الملتوية في الدغل البعيد، عبق الجو برائحة الربيع، أخذتني لنشوة جنونية، زهور الأقحوان تحوطني في سماء مسائية عامرة بالأضـــواء، زهرة الأقحوان لا تغريها مصـــابيح المدينة ولا تخاف من حزن الليل، لا تلم أوراقها إلا على خيوط الشمس الأبدية، تلهب قلبها، فتصير أوراقها أجنحة تحلق وراء الشمس..

* * * * *

الأنشودة السابعة والخمسون

يأتيني الربيع صـــامتاً، يحمل على كفيه (البتولا) باكية.. وبومات عيونها خضـــراء مصـــفرة تخلط ما بين الليل والنهار..ظلال البتولا بائسة، حفار الخشب يدق جذع الصنوبر بضراوة.. وطائر (القرقف) لا يحب القمح ويعشق بذور عباد الشمس.

أمي من علمتني أسماء الفصول، رائحة الأرض تفوح بقوة، شجرات نخرة، وشجيرات وليدة تشرع للجفاف والذبول قبل أن تبلغ نضجها، قلبي يرتجف وأنا أقتفي زهرات البنفسـج، فتعانق وجهي خيوط العنكبوت اللزجة، وأنا التي أسكن أعماقي، لا تبلغني أشعة الشمس، هل جف نبعي قبل الأوان؟.. خمائل البنفسج ذاوية على الجدار، الأصوات تموت من حولي، لم تعد أي حنجرة تلد صوتاً، المباني الضخمة تتمدد لتذوب في الفضاء، أسطر حروفي على صفحات مشطوبة من العمر، تراني عمّ أبحث؟ هل أبحث عنها في ربيع أرض مفقودة؟

يحضـرني مكانها هناك، ورحيل الربيع إليها على معزوفة حزن أبدية؟.. أرضـها تغطيها زهرات البنفسـج دون الجفاف.. دون الذبول.

الضــباب يمتزج بصـدر البحر، وأنا المحمولة على أثير من زرقة ونقاء في فضــاء بارد، النوارس تسـكن للماء، تضـم أجنحتها على أرق الانتظار، تتناثر بيضـاء، ترسم خارطة روحي تحت دثار من نديف السحب الكثيفة في رحلة الصمت الربيعية.

أبحث عنك في بؤرة البلور فلا أجدك، أخذتك عوالم الأرض هناك، تكتب رسائل لا تصل إليَّ، تبعثر كلماتك، تضيعها على محطات العمر الآفلة وتعود تلتقطني على حبل هواء، ترسـم لي صـوراً ووجوها تحبها قد لا أكون فيها، فلا يبق مني إلا صوت يطن من هوة سحيقة وأنت من يقول:

– في صوتك تسكن الدنيا، يزهر ربيع الكون، سآتي إليك وأحملك معي إلى ما وراء الأثير، ونترك الأرض هناك.. الشتاء كان قاسياً، أخذ معه مطارحنا، أنت يا ابنة الفصول، تعالي إليَّ يا شمس الصيف تحملين الربيع في قلبك، فيولد الأبيض من قلب البنفسج.

هناك صـــرت حلماً حط على أرض البرية، أعانق زهور الليلك حراس قبرها، هالني ما رأيت، لامرأة جف عودها، تتشـــح سواداً، تنشـج بكاء، ترص أوراقاً نقدية حول القبر، تدسها في الرمال، هبت ريح ناعمة، فتقلبت لها الأوراق تتعفر بتراب البرية، تبعثرها الريح، تتفرق في صـــمت حزين، وأنا التي صـــرت الحلم أقبض على لون الليلك فتولد الأوراق في راحة يدي، والمرأة صـارت الأرض من حولها خواء، وأنا التي صـرت حلماً أخذتني محمولة على طيات الأثير لأسـكن فضـاء الكون.

* * * * *

الأنشودة الثامنة والخمسون

قطرات المطر تخدش زجاج نافذتي، تسيل على سطحها، أنفاسي تتقاطر وراءها، أراقب جريانها ومنتهاها، أنغمس فيها، أنتشل روحي منها، أنتظر قطرات تأتيني، أعود معها أغتسل بنقائها، أبدو بلورة من نور، ينزلق الليل عن كتفي، أنشد كلماتي..
تتفتح لي زهرات البنفسج، تتمدد الجسور أمامي، تزيح حواجز الماء، يندفع لمجاريه القديمة عائداً، يزيح سواد الأرض، يستقر في برك صافية، تزهر الحياة بعد جفاف، وصفحات بيضاء تستقبل معزوفة الألوان من وجه الشمس..

* * * * *

خروج

الورق تغرقني نصاعته، أوراقي تحررت من سطورها، تحلق في سماء الحياة، هل أكتبها وأسطر عليها هذه الليلة وأنا المستلقية على وساداتي، أنشد الليل ليريحني ومن أحشائه تخرج أوجاعي، يعيدني إليه مستسلمة في هيام روح ووجد..

خلت أوراقي طيرتها نسائم خريفية، الليلة وجدتها تتسحب لأطراف وساداتي وأنا التي كدتني رحلت عن الحروف وأوجاع الكلمات!.. الليلة أعود على حواف زهور الليلك، أعود زهرة برية لا تجيد الكلمات ولا الرقص على أوتارها، صغيرة لم تغادر حضن أمها، زهور الليلك عائدة برائحة عنبر في علبة مخملية أحكم الغلق عليها..

– انتهت –

٩ إبريل ٢٠٠٦

بشرى أبو شرار

الفهرس